مريوط

جنة الصحارى الأفريقية .. وروضة الصحراء الغربية

مجتلى الحب .. وأيك الغناء .. وبشاشة الطبيعة

بقلم

عبد اللطيف واكد

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الماء في الصحراء

بما أن الماء يكوّن ٨٥ ٪ من جسم الإنسان والحيوان ، وما يقرب من ذلك في مختلف أنواع النباتات ، فقد وجب بحث مشكلته في الصحراء قبل كل شيء . فحيثما وجد الماء وجدت الحياة . وازدهرت جناتها ، وقد قال تعالى في كتابه العزيز « وجعلنا من الماء كل شيء حي »

وقديماً . . وقبل معرفة الخلق للخالق عز وجل . . وحتى الآن . . اتخذ الناس من دون الله أرباباً . . فمنهم من عبد الشمس ، ومنهم من قدّس النار ، ومن سجد للشيطان ، ومن صلى بين يدي الحيوان ، الى غير ذلك من الأصنام والأوثان . . ولكنني لم أر أحداً يلتمس له العذر ، فيما اتخذه معبوداً من دون الله ، غير المصريين القدماء ، فقد جاءت أجيال منهم ، وعبدت النيل . . !!

أليس هو الذي يروي الزرع والضرع . . ويحيي بإكسيره الإنسان . . !!

ليس هذا بحثاً في فوائد الماء ومنافعه ، وإنما هي إشارة لابد منها ، قبل أن نتحدث عن الماء في الصحراء . . !!

ونستطيع أن نقسم الصحراء الليبية من الوجهة المائية ثلاثة أقسام :

١ — قسم فاقد الماء ٢ — قسم موسمي الماء ٣ — قسم دائم الماء . . !!

١ — القسم العديم الماء

وليس معنى عدم وجود الماء فيه ، أنه لا يحتوي على كائنات حية ، حيوانية أو نباتية ، « كلا » فانه ليضم مجموعة من النباتات الجافة (١) التي لها قدرة على مقاومة الجفاف ، فتعيش رغم تقلبات الطقس ، على أقل نسبة من الرطوبة الجوية أو الأرضية . . وعلى هذه النباتات تعيش بعض الحيوانات الصحراوية البرية . . كالغزال الذي يكثر وجوده في هذه المناطق ، متخذاً من لونها الذي يشابه لونه ستاراً . . ويكتفي في ارواء غلته ، وإطفاء ظمئه بما يختزنه الندى ، الذي يهبط بغزارة في الصحراء آخر الليل ، على الصخور التي تتضمن أحياناً

---

(١) في آخر الكتاب تعليقات وشروح

تجاويف متعرجة ، يتجمع فيها ماء الندى ، فيأتي الغزال قبل شروق الشمس فيلعقه بلسانه .
وعلى هذا المأكل والمشرب يقضي حياته ، محتفظاً بما وهبته الطبيعة من رشاقة وجمال هما عند البشر مضرب الأمثال .

ويشمل هذا القسم الصحراء الجنوبية . وتمتاز هذه المنطقة بكثرة كثبانها الرملية المتنقلة التي يسميها أهل الصحراء بالغرود .

والغرود (٢) واحدها غرد .. ولقد نتجت في هذه المنطقة من تأثير الرياح على مكونات الأرض الرملية الرخوة في منخفض القطارة (٣) ثم انتقلت من مكان الى مكان حتى ترسبت أخيراً في الجنوب الشرقي للمنخفض ، على هيئة تلال شاهقة ، تقع في خطوط تكاد تكون مستقيمة بعض الشيء .. أما انتقالاتها فمع هبوب الرياح التي تحملها غالباً من شمال الشمال الغربي ، الى جنوب الجنوب الشرقي .. وتمر مع الهواء على هيئة سحب رملية رقيقة تسمى سافيات الرمال ، لا تلبث أن يتكاثف بعضها فوق بعض ، حتى يتكامل انتقال التل ، من مكان الى مكان آخر .

وتُغير هذه الغرود على القرى فتغمرها ، وعلى الحدائق فتطمرها ، كما حدث في قرية الموشية بالداخلة ، والزبو بالبحرية . . وعلى الدروب فتمحوها . وكثيراً ما كانت سبباً في ضلال الكثيرين من الضاربين في الصحراء ، وليس أدل على ذلك من هلاك جيوش قمبيز في طريقها بين الواحات الخارجة وسيوه عندما أرسلها في عام ٥٢٥ ق. م. لتحطيم معبد آمون الذي كان له مركز عظيم في عالم اللاهوت ، في ذلك الحين . وكما أن لها مثل هذه الأضرار فلها فوائد أخرى ، إذ يلجأ اليها الأهلون بالواحات في ليالي الصيف هرباً من الدور التي تكثر فيها العقارب والحشرات الضارة إذ أن هذه لا يمكنها السير فوق ذراتها الدقيقة فيمكنهم تمضية الليل في هدوء واطمئنان من غارات هذه الأعداء الفتاكة في أثناء الليل فينعمون بنوم هادىء لا يشوبه فزع ولا قلق .

وليس في هذه المنطقة سكان قط غير سكان الواحات الواقعة فيها .

٢ — القسم الموسمي الماء

ويشمل المنطقة الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين الاسكندرية والسلوم بعرض خمسين كيلو متراً في أغلب المواقع جنوبي الساحل . وهذه المنطقة ذات خصب وافر آهلة بالسكان من البدو الرحل الذين يكونون قبائل أولاد علي بنوعيها (٤) وهم يشتغلون

بتربية الابل والماعز والأغنام ، وبعض زراعات أخرى صغيرة . ولهذه المنطقة ثلاثة موارد للماء .

١ — المطر : أهم الموارد وعليه تتوقف زراعة الشعير ، وحياة الزراعات الأخرى ، إذ يهطل في هذه الجهات بغزارة في الشتاء ، حتى أن السيول المتجمعة منه تتلف أحياناً طريق السيارات المرصوف . وتجتاح الخط الحديدي الممتد على الساحل ، فتنقله من مكان الى مكان لشدة اندفاعها نحو البحر . ولقد احتاطوا لذلك ، بأن جعلوا لهذه السيول منافذ وممرات تحت الخط الحديدي ، مشيدة بالأسمنت المسلح على هيئة قناطر تكبر وتصغر على حسب انخفاض البقعة بالنسبة لما يجاورها من الجبال والتلال ، إذ في المناطق المنخفضة المنحدرة نحو الشاطيء يقوى اندفاع ماء السيول ، وبالعكس ، ولقد أقاموا هذه القناطر في الأماكن التي تعرضت لهجمات السيول غير مرة ، ثم قاموا بحفر جداول محاذية للخط الحديدي تنتهي الى هذه المنافذ ، حيث تنفذ منها الى البحر فيما صنعته لنفسها في الأرض من أودية عظيمة .

ويستغرق فصل الأمطار حوالي الخمسة أشهر إذ يبدأ في اكتوبر وينتهي في أواسط مارس . أما ما بقي من أشهر السنة فلا تتساقط خلالها الأمطار لذلك تشتد فيها حرارة الجو وتكثر العواصف الرملية .

ويبلغ متوسط سقوط الأمطار ١٦ سنتيمتراً في كل الأعوام تقريباً ، الا ما يجيء فيها مجدباً من الأمطار ، كالأعوام السبعة العجاف التي تنحصر بين ١٩٣٠ وعام ١٩٣٨ فانها كانت أقل من ذلك بكثير لدرجة محلها والعدم في صف واحد . وفي الأعوام الغزيرة الأمطار فوق العادة كعام ١٩٣٨ الذي هطل الغيث فيه بعد امتناعه أعواماً فبلغ متوسطه ٧و٢٥ سم ولقد كان لهطول الغيث بهذه الغزارة أثر حسن ، ونتيجة عظيمة في وفرة المحصول .. وحمل الأرض على أن تخرج أسرارها ، التي احتفظت بها أعواماً سبعة ، على هيئة أزاهير جميلة تنفح الجو بأريجها العطر ..

ويسمي البدو السنين المجدبة الأمطار أو قليلتها (جَدْب) بتحريك الدال مفتوحة وتسكين الباء . كما يسمون الأعوام الكثيرة الأمطار الوفيرة المحصول (صَابَا) . والمطر عدا ذلك آثاره الملموسة في رفع منسوب الماء الأرضي .. وتغذية الآبار المنتشرة في عرض الصحراء بالماء . إذ تتشربه التربة .. ثم تزجيه إلى الآبار بطريق الرشح .. !!

٢ — الآبار : ثاني الموارد وأهمها صيفاً ، إذ يشرب منها الناس والابل والأغنام . وتروى منها الزراعات الصغيرة التي لا تحتمل العطش ، وتجلب المياه منها إما بالسواقي التي تقام دائماً

أو بالماكينات الرافعة عند الحاجة اليها ، أو بواسطة طواحين الهواء .. أو بالبكرة والدلو.. وهذه الآبار أنواع كثيرة .. !!

ا — المواطن : ويبلغ عمقها من ثلاثة إلى أربعة أمتار .. وتتجمع فيها المياه من رشح الأمطار والسيول ، التي تتشربها القشرة الأرضية. ومن أهم خواصها طول الاحتفاظ بالماء . وماء هـذه الآبار يصير مالحاً بعد مضي وقت قصير في بعض الجهات .. ويظل عذباً طوال أيام العام في بعض الجهـات الاخرى .. وذلك لاستمرار ورود الماء لهـا بالرشح ، بواسطة روافدها الـكثيرة التي تمتد مسافات بعيـدة في جوف الأرض .. ولقلة الأملاح المختلطة بالتربة الواقعة هي فيها .. وتكاليف حفر البئر من ٣٠ الى ٤٠ جنيهاً .. ويقوم بحفرها بعض الأهلين ممن تخصصوا في هذه الصناعة ..

أما طريقة حفرها فتبدأ بحفر البئر المركزية في الطبقة الأرضية العليـا .. إلى أن يصل الحفر الطبقة الصخرية التي تحتهـا ، والتي تحول دون تسرب ماء المطر الذي تتشربه الأرض بواسطة المسام الأرضية إلى أعماق بعيدة . ثم تحفر قنوات جانبية تمتد إلى مسافات بعيدة في جوف الطبقة السطحية كسراديب تكبر أحياناً حتى تتسع لمرور الرجل بقامته .. وتـكون هذه السراديب بمثابة روافد تغذي البئر بالماء المختزن في جوف القشرة الأرضية من مخلفات السيول والأمطار ثم يتسرب إلى مجاريها بالرشح .. وعلى قدر امتداد القنوات أو السراديب وكثرتها تـكون وفرة الماء وقلته في البئر .

ب — آبار السماء : وهي خزانات عملت أول ما عُملت في عهد الرومان ، وجهزت باستحكامات تضمن حفظ الماء فيها وقتاً ليس بالقصير ، ويأتيها الماء مما يتجمع حولهـا من السيول التي تـكوّن على أثر سقوط الأمطار فوق التـلال والهضاب المجاورة لمواقع هـذه الآبار ، ويدخلها الماء من فتحات جانبية بمستوى سطح الأرض . ويرفع منها من فتحات في أعلاها تقفل وتفتح حسب الحاجة . وعادةً لا توجد أو لا تصنع هـذه الآبار إلاّ في منخفضات مسـتوية القاع بحال تضمن وصول الماء اليهـا مما حولها من مرتفعات ، وهي لا ترتفع عن سطح الأرض أكثر من قدم أو قدمين .. وتتراوح سـعة البئر بين ألف متر مكعب وخمسة آلاف متر تقريباً ، ويسكن البدو في خيامهم بجوار هذه الآبار أو بمقربة منها ..

جـ — آبار النواني أي آبار تحت التربة Sub-soil water .. وهي عبارة عن آبار ارتوازية يرفع ماءها بالماكينات أو السواقي . ولقد صنعت أيضاً في عهد الرومان الذين كانوا حريصين دائماً كل الحرص على ضمان بقائها جيدة سليمة عهداً طويلاً . وتشتهر « بئر البردويل » بالعامرية

بساتين الزراعة ببرج العرب سنة ١٩٤٥ وبها شجر الخروب

بئر الحفنة ببرج العرب وهي خزان روماني لمياه الأمطار

نموذجاً لهذا النوع من الآبار ، ولقد بنيت جوانبها على عمق (١٦ متراً) تحت سطح الأرض ويبلغ قطرها (١٢ متراً) ويرتفع بناء هذه الجوانب ويكوّن خزرة فوق سطح الأرض بعلو ثلاثة أمتار تقريباً ، ولها سقيفة من الخشب بشكل مخروط مربع ، وتوجد نافذة بكل جانب من جوانب السقيفة عرضها (٨٠ سم) وطولها (٨٠ سم) وتستعمل للتهوية ، وبداخل البئر سلم من الحديد يوصل الى قاعها . وعلى ارتفاع (٥٠ سم) من سطح الماء ، توجد ثماني فتحات حول البناء بشكل أبواب مقوسة طول الواحد منها (١٢٠ سم) وعرضه (٦٠ سم) ويوجد تحت كل باب من هذه الأبواب فتحة أخرى طولها (٤٠ سم) وعرضها (٣٠ سم) ينصب منها الماء المحجوز خلفها الى البئر ، وهذه الفتحات الثماني تتصل بسراديب مبني بعض أجزائها على مسافة لم يتمكن أحد من تحديدها الآن وهذه السراديب في ثمانية اتجاهات مختلفة . ويظن ان المياه التي تأتي الى هذه البئر ترد اليها من أبعاد مختلفة اذ اتضح عند التطهير الذي أجري عام ١٩٢٧ بواسطة لجنة مياه الشرب الموفدة من قبل مصلحة الصحة (وزارة الصحة الآن) لفحص مياه الصحراء ، أن مياه العيون الأخرى المجاورة جيداً ، والتي تقع في دائرة قطرها خمسة كيلو مترات حولها ، كانت جافة .

وتدخل هذه البئر على مسافة (١٢ متراً) تقريباً من الجهة الجنوبية ، وبعد صعود بضع درجات من السلم المبني في عصر الرومان . يصل الداخل الى البئر الى باب محفور في خندق وهذا السلم تستمر درجاته داخل البئر وعددها (٤٥ درجة) وينتهي طرفه الى رصيف توجد في إحدى نهاياته فتحة سعتها ضعف سعة النوافذ الموجودة في البناء في جدار البئر (وقد سبق ذكرها) ويمكن لمن يقف في هذه النقطة أن يرى الماء المنصب من الفتحات الى داخل البئر ويختلط فيه بمائه .

وتوجد غرفة بالقرب من البئر بها الآلات الرافعة التي تدار بمحرك يدار بالمازوت قوته (١٥ حصاناً) وتوجد طلمبة ماصة كابسة تدار ثماني ساعات في اليوم . ويخرج الماء من ماسورة قطر فوهتها ثلاث بوصات . ويسير في قناة صغيرة مكشوفة طولها عشرة أمتار تقريباً . وينصب في مزارع مساحتها خمسين فداناً ، والماء الذي ينصب يومياً يكفي لري أربعة أفدنة فقط .

٣ — ماء النيل : ويوصل إلى المدن الواقعة على الساحل بواسطة بواخر مصلحة خفر السواحل ، إذ بها خزانات مجهزة لهذا الغرض ، ويوزع على الموظفين وكبار الأعيان لاستعماله في الشرب نظراً لأن مياه الآبار أغلبها ملحة غير مستساغة .. وكذلك يحمل القطار يومياً قناطيس المياه من الاسكندرية لتوزيعها على المحطات .. وأخيراً مدت أنابيب المياه

من أبي المطامير حيث أقيمت مضخات كبيرة ماصة كابسة على نهاية ترعة النوبارية . ولقد بلغت المياه التي تضغطها هذه المضخات في الأنابيب الممتدة منها إلى طرق في أيام الحرب الأخيرة وقد جعلوا في كل بلد تقريباً (حنفية) عامة لتوزيع الماء منها على الأهلين .

* * *

أما وقد عرفنا موارد الماء في المنطقة الساحلية فيمكننا أن نبين طرق الري فيها ولكي نتمكن من الوصول إلى طريقة مثالية سنتخذ من مزرعة قسم البساتين ببرج العرب أنموذجاً لطرق الري المتبعة في هذه المنطقة .

أولاً : الري شتاء : تهطل الأمطار فتغمر الأرض كلها .. فيرتوي الشعير .. والأشجار والحدائق وما نما من نباتات برية .

ويسقط المطر فيما يسقط على التلال والمرتفعات ، فينحدر مكوناً سيلاً يُحتَفَلُ عليه للانتفاع به ، فتحفر في سفح كل تل قناة ، في منحدر السيل لينجمع فيها .. ومنها يزرع إلى أحواض الزراعة بواسطة مساقٍ فرعية .. وتسمى القناة التي في سفح التل (ناي) ومجموعها نايات .. !!

ولما تبين للرومان أن توزيع المياه الناتجة عن سقوط الأمطار في مناطق متسعة الأنبساط يكون عادة بحال لا يكفي لانتاج محاصيل وافرة . لما تبين لهم ذلك لجأوا الى عمل تلال صناعية في وسط كل مساحة متسعة من حولها ، حتى إذا ما نزلت الأمطار عليها انحدرت الى الأرض المجاورة المزروعة فتضيف إلى ما نالته مما تساقط عليها من مطر كمية من الماء لا بأس بها ، فينتج عن ذلك زيادة في المحصول .. ونجاح في الزراعة .. وتشاهد آثار هذه التلال حتى الآن في مناطق كثيرة من الصحراء تعرف عند البدو بالكروم .

ولما كان الماء الأرضي يحتوي على ٤٠٠٠ جزء من الرواسب الملحية في كل مليون جزء فقد روعي الاحتراس منه بقدر الامكان عند استعماله للري خصوصاً للأشجار الصغيرة . لذلك لجأت المزرعة لادارة الماكينات أيضاً في الشتاء ، لخلط ماء المطر بماء الآبار المالح ، فيمكن الحصول بذلك على درجة رطوبة كبيرة تستطيع الأرض أن تحتفظ بها وقتاً طويلاً فتستفيد بها الأشجار الدائمة مع تخفيف نسبة الملوحة ، فيقل الضرر الذي ينجم عنها .. !!

ثانياً : الري صيفاً : كانت الأشجار تروى صيفاً بالماكينات والسواقي بالطريقة المتبعة في ري الحدائق بوادي النيل وذلك بأن يجري الماء داخل البواكي القائمة بها الأشجار .. ولكن تبين أخيراً ان هذه الطريقة ضارة بعروق الأشجار وجذورها . لوجود مركب كلورور الصوديوم في الماء بنسبة كبيرة ، فاتبعت طريقة أخرى ، أمكن بها تخفيف تأثير

الأملاح الضارة ، وذلك بأن جُعل مجرى الماء في قنوات تبعد عن السوق بمقدار نصف متر وكل عام يزاد البعد ، حتى يصير المجرى بين كل صفين من الأشجار ، وهذه الطريقة تستعمل للأشجار الصغيرة ، والمطعمة حديثاً . وأما الأشجار الكبيرة فلا تروى صيفاً إلا إذا قلت نسبة الرطوبة في الأرض ويمكن معرفة ذلك بواسطة جور الاختبار ، التي تحفر في جهات متعددة بين الأشجار بعدد يضمن معرفة النسبة بالضبط ، فان قلّت درجة الرطوبة تروى كالأشجار الصغيرة، ولكن تبين أخيراً أن طريقة الري هذه غير مفيدة في كل الحالات إذ يمكن الانتفاع بها تماماً في التربة الكثيرة المسام التي ينفذ الماء بينها بسهولة. أما التربة التي لا ينفذ الماء فيها بسهولة فليس من الواجب النصح باستعمالها إذ ان الماء يتبخر بواسطة الشمس والهواء قبل ان يتخلل المسام الأرضية فيصل الى جذور الأشجار ، ولذا تتبع الطريقة الأولى في الحالة الأخيرة مع تقليل الري وجعله عند الضرورة .

أما كمية الماء اللازمة لري فدان مزروع أشجاره على بعد خمسة أمتار مرة واحدة فهي نحو (٦٠ طناً) فقط ويستهلك في رفعها من الوقود ما تقدر قيمته بحوالي (٢٥ مليماً)[1] وكمية الماء اللازمة لري للخطوط مرة واحدة في زراعة العنب البالغة مساحتها فداناً هي (١٣٠ طناً) يستهلك في رفعها من الوقود ما تقدر قيمته بخمسين مليماً ذلك لأن العنب مزروع على مسافات قريبة أي ٢ × ٣ من الأمتار . وقد يكفي لزراعة مائة فدان ماكينة واحدة قوتها عشرة خيول ، وطلمبة قطرها أربع بوصات .

٣ — التقسيم الدائم الماء

ويشمل الواحات المصرية جميعاً ، إذ العيون تنفجر بماء غير دائم الجريان ، لا ينضب له معين ، ولا يتوقف على عوامل جوية ، وإنما يتسرب الماء الى منخفضاتها خلال طبقات الخراسان النوبي ، الذي يوجد في هذه المنخفضات على سطح الأرض ، أو دونه بقليل ، تغطيه طبقة غير سميكة من الحجر الجيري . أو الرواسب البحرية الحديثة ، التي يسهل الحفر فيها ، والوصول الى الماء من ورائها ، ولقد تضاربت آراء علماء الجيولوجيا في مصدر هذا الماء ، لا في طريقة وصوله التي علمناها . فلقد ظن فريق منهم أنه يأتي من النيل ، عند مروره في منطقة النوبة فيتسرب الى الواحات مباشرة ، ماراً بطبقات الخراسان النوبي التي تكثر في هذه المناطق .. ولكن فريقاً آخر عارض في ذلك .. والحجة التي أقامها المعارضون أن ماء النيل ينقص ويزيد . أما ماء العيون فثابت المنسوب ، فما هذا التباين والاختلاف ..؟؟

---

(١) أسعار ما قبل الحرب

وقالوا إنهم يرون أن مصدر هذا الماء هو بحر الغزال ، حيث الأمطار دائمة الهطول .. والمستنقعات كثيرة تساعد على تسرب الماء بكثرة ، وأقاموا الدليل على ذلك بدفء ماء العيون والآبار ، في أغلب الواحات زاعمين أن سبب هذا الدفء كون الماء يقطع مسافات كبيرة في جوف الأرض ، فيمتص بعض حرارتها .

وجاء فريق ثالث فاعترض على هذا الرأي ، بأن مستوى بعض الآبار أعلى من مستوى مستنقعات بحر الغزال . وأنهم يرون غير هذا الرأي وهو أن مصدر الماء الذي تتفجر به العيون ناتج عن الأمطار الغزيرة الموزعة على فصول السنة ، والمتساقطة على المرتفعات المكونة للحافة الشرقية لمنخفض بحيرة (تشاد) بالصحراء الفرنسية الكبرى التي تكاد تكون عديمة النباتات . وسبب ذلك أن الحراسان النوبي الذي يغطي الأرض يتشرب الماء الذي ينفذ خلاله الى الواحات . وربما كان هذا الرأي له نصيب من الصحة ، وربما ظهر عليه ما يخطؤه بعد حين .

وقال « زيتل » في تقريره الذي نشره عام ١٨٨٣ من جيولجية صحراء ليبيا أن لمياه العيون المنتشرة في الواحات بهذه الصحراء خزاناً هائلاً تحت الأرض » .

ومهما كان مصدر هذا الماء مختلفاً فيه أو متفقاً عليه ، فانه يصل الى الواحات متدفقاً بغزارة . وسنأخذ في دراسته ومحنه بكل واحة على حدة .

١ — واحة سيوه

وانه لما يسترعي النظر وانتباه الزائر لواحة سيوة ، كثرة عيونها المنتشرة في أرجائها . والموزعة بحالة تحمل على الاعتقاد بأن الطبيعة قد أوجدتها في أماكنها هذه ، لكي تكون أنفع وأيسر تناولاً ، مما لو كانت في أماكن أخرى من الواحة . ومما لا يزال يردده الأهلون ان سيوة كانت في العصور القديمة تحتوي على أكثر من ألف عين . ويدللون على صحة ما يقولون بكثرة المصارف القديمة المطمورة . ذلك لأنه لكل عين مصرف ينقل الزائد من مائها من الحاجة ، الى بحيرة الزيتون التي تمتد بين « أغورمي » (٥) و « عزبة الزيتون » . مسافة ثلاثين كيلو متراً تقريباً . أو بحيرة « خميسة » التي تمتد بين « خميسة والمراقي » (٦) ولا تزال آثار هذه المصارف هي معتمدهم الوحيد للاستدلال على العيون القديمة المطمورة كلما أرادوا إخراج عين جديدة .

والعيون الموجودة الآن مشيدة جميلة البناء .. البناء الذي يكون في أغلبها دوائر ترتفع عن الأرض بمقدار نصف متر . محيطاً بما يشبه بركة واسعة من الماء يتراوح قطر دائرتها بين

٣٠ الى ٦٠ قدماً . واذا ألقى الانسان عليها نظرة ، رأى ماءها الصافي صاحياً عند أطرافه ، أما في وسطه فتخرج فقاقيع من الزبد ، تطفو على وجهه ثم تتلاشى . وهذه الفقاقيع هي نهاية الماء المتصاعد من قاعها البعيد كحبات اللؤلؤ ترى عن بعد وهي صاعدة بألوانها الكثيرة الفاتنة ، التي تحمل رائيها على أن ينسى نفسه معها برهة غير قصيرة من الزمان . وتظل هذه الحبات اللؤلؤية متصاعدة في تعاقب ، حتى اذا ما وصلت الى السطح انسابت بين الماء ، على هيئة فوران خفيف . ومن العيون ما تشاهد فيها هذه الظاهرة شديدة ومريعة . حتى أن الماء ليغلو وكأنه في حالة غليان .

لذلك نجد أن الماء في عيونه كثير . ويزيد عن الحاجة ، حتى أنهم يتركونه ينصب سدًى الى المالحات والبحيرات الكثيرة الانتشار في أرجاء الواحة . ولقد كانت هذه العيون قد وصلت الى حالة لا ترضي من الاهمال . فأوفدت وزارة الأشغال في عام ١٩٣٤ ، المهندس البارع محمد أفندي عمر ، لاصلاح ما فسد واخراج ما يمكن اخراجه من العيون المطمورة فكانت نتيجة ذلك أن خرجت عين « تجورتي » وعين « الدكرور » تفيضان بماء غزير .

* * *

وتنقسم عيون الواحة ثلاثة أقسام وذلك من حيث الملكية

١ — عيون مشتركة : وهي العيون التي يملكها أكثر من واحد ، وينتفع أصحابها بمائها في ري زراعاتهم على السواء . ولهذه العيون نظام يتبع في توزيع الماء . إذ يوزع ماؤها بحساب « الوجبة » والوجبة : هي النهار فقط أو الليل فقط . إذ اليوم وجبتان — وتكثر وجبات العين وتقل على حسب اتساع مساحة الأراضي التي ترويها وقوة تصريفها ، وتنقسم الوجبة ثماني أقسام ، ويسمى كل قسم « ثمناً » وتباع الملكيات الزراعية بحساب أو على أساس « الثمن المائي » ويساوي « الثمن » من ٢ الى ٢٤ جنيهاً . ويترقف ارتفاع الثمن أو انخفاضه على كمية الماء التي تنتجها العين اذا كانت قليلة أو كثيرة . وحالة ملاك العين المالية ، وما هم عليه من غنى أو فقر ، فان كانوا أغنياء متوفرة عندهم القوة الشرائية ، ارتفع ثمن « الثمن » فيها ، وبالعكس اذا كانوا فقراء .

وتقدر ثروة الرجل بمقدار ما يملكه من ماء ، إذ على قدر الماء يستطيع أن يزرع ويجني الثمر (٧).

ويقوم بتنظيم توزيع المياه في هذه العيون اثنان :

١ — مؤذن المسجد العتيق : وعليه اعلان الوقت ليلاً . إذ يؤذن من مأذنة المسجد العتيق ، بعد نصف الليل بساعة ونصف الساعة . ويسمى هذا الإعلان « النداء الأول »

وبلهجة أهل ميرة « تَمَانَـيرَّل » وله صيغة مخصوصة ، ذلك بأن يبدأ بقراءة آيات من القرآن ثم يختم بصوت منخفض مؤذناً « الله أكبر » .

وبعد ساعة ونصف من العشاء الأول يؤذن أذاناً ثانياً يسمونه « تادِهَّب » ومعناها أن وقت العشاء الأول قد ذهب . وأما صيغة هذا الأذان ، فهي أن يقول مبتدئاً « نسألك العفو والعافية ، والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة » وهنا يترك الماء من هو ماض في الري، ويبدأ من عليـه الدور . ويرسل مؤذن المسجد العتيق بمنازل النجوم الى « تادهب » وبعد ذلك تسير المواعيد بطلوع الفجر ، وشروق الشمس الى أن يتسلم منه الرجل الموكول إليه التنظيم بالنهار .. !!

ب — الرَّقّابُ : وحقيقتها الرقيب ، وهذا يعمل نهاراً منذ شروق الشمس الى غروبها على « المزولة » وعلى كل من له موعد استلام ماء أن يذهب اليه في مكانه الذي اتخذه عند خص « أبي مجاجة » ويخبره بموعده . فإذا ما حل أبلغ الرَّقّاب صاحب الموعد . وأبو مجاجة هذا رجل صاحب فضل وبركة ، قدم الى سيوة فابتنى له كوخاً أمام المسجد العتيق وأقام به فتسمى المكان باسمه ، ويقال أنه من جهة « مجاجي » بالقرب من سيدي براني .

ويأخذ كل من « مؤذن المسجد العتيق و « الرقاب » أجراً على ذلك يقدّر بأربعين صاعاً (٨) من القمح لكل منهما . تصرف أو تجمع لها من البلد عموماً . وكانت فيما مضى تصرف من بيت المال من المتحصل من مزادات الماقول (٩)

« تقدير الوجبات لكل عين » : علمنا مما سبق أنّ العيون جميعها ليست متساوية في عدد الوجبات ، وبإزاء ذلك نلمس أن نظام الوجبات تقديري في كل عين على حدة ، ولهم في ذلك طريقة خاصة يتبعونها في تقدير وجبات العين بعد اخراجها ، ذلك بأن ينتدب أصحاب العين أميناً يرتضيه الجميع ليس من ملاكها ، غريباً عن حوضها ، ويكلون اليه أمر التقدير ، فيتولى هذا المندوب مراقبة الري الأسبوعي ، في جميع الأراضي الواقعة في حوض العين والتي ترتوي منها فعلاً ويثبت في كشف بيده عدد الساعات التي تستغرقها أرض كل منهم في الري بالتوالي حتى اذا ما انتهت أراضي أصحاب العين جميعاً الذين اتفقوا في اخراجها كل على حسب ما علكه من الأرض (١٠) فالذي علك كثيراً يدفع أكثر من الذي يملك أقل منه ، وهكذا حتى لا يكون في الأمر غبن على أحد .

ويعيد الأمين الري مرة أخرى ويثبت الأرقام ، ثم يعيد الري مرة ثالثة ويثبت الأرقام أيضاً ، ثم يأخذ المتوسط للريات الثلاث ، فيكون هذا المتوسط — لكل مالك — هو ما يمتلكه من حق في ماء العين ، وبعد ذلك يجتمع أصحاب العين ويحررون دفتراً بهذه

المواعيد والساعات، ويرقمون عليه، فيصير بعد ذلك نافذ المفعول، لا يمكن الخروج عليه أو العدول عنه..

ولو فرض أن العين روت الأراضي الواقعة في حوضها، والتي يملكها مخرجوها في عشرة أيام فتكون وجباتها عشرين وجبة، ويكون دور الري فيها كل عشرة أيام!.

ولكل عين « حساب » يرشد أصحابها لمواعيد الري التي تخصهم فيها، وهؤلاء يذهبون الى « الرقاب » فيخبرونه بمواعيدهم، حتى إذا ما حلت نبههم اليها..

إذن فالرقاب واحد. وهو الذي يجلس في « خص أبي عجاجة » وأما الحسابون فهم كثيرون بعدد عيون الواحة، فلكل عين « حساب » وبيد كل « حساب » كشف بمواعيد العين التي هو « حسابها » ويأخذ الحساب أجراً على عمله هذا من أصحاب العين أنفسهم وهذا الأجر هو جزء من ماء العين فينتفع به ان كان يملك أرضاً في حوض العين، أو يبيعه لأحد ملاك العين إن كان لا يملك أرضاً في حوضها الذي ترويه.

وأمثال هذه العيون: عين طموسي. والجوبة. وتلعحرام!

* * *

وهناك عيون مشتركة لا تخضع لنظام « الحساب والرقاب » وإنما يوكل أمرها « لخفير الخطايا » (١١) يوزع الماء بالتوالي، وأمثال هـذه العيون. أم هندد، ودهيبة، وبعض عيون خريسة والمراقي (١٢) وذلك لأن مواقعها تبعد عن البلد مسيرة ساعات فلا يتمكن صاحب الدور من أن يلحق به!.

٢ — عيون عامة: وهي التي لا يملكها أحد، وللجميع حق الانتفاع بمائها، بشرط ألا يستعمله أحد في الري، إذ أنها تعتبر من المنافع العامة، كعين (تابا) الواقعة خلف نادي الموظفين بسيوه.

٣ — عيون خاصة: وهي التي يملكها فرد أو عائلة، يروون منها زراعاتهم، ولا يشاركهم فيها أحد، كعين الزيتون التي كانت ملكاً للسادة السنوسية وقد اشترتها الحكومة أخيراً بين ما اشترته من أملاكهم في الواحة، وعين أبي شروف التي يملكها السادة المدنية، وعين قريشت التي يملكها الأمير محمد عبد المنعم.

وتنقسم العيون أيضاً ثلاثة أقسام من حيث استعمالات الماء:

١ — عيون تستعمل للزراعة والشرب كطموسي وتلعحرام

٢ — « لا تستعمل إلا للزراعة فقط لملوحة مائها كعين قريشت

٣ — عيون تستعمل للشرب فقط كعين « تابا »

وتنقسم العيون غير ما تقدم ثلاثة أقسام من حيث الحالة الراهنة :

١ — عيون جارية : وهي التي تنتج ماء ينتفع به الآهلون

٢ — « جافة : وهي التي لا تزال موجودة ولكن ليس بها ماء

٣ — « مطمورة : وهي التي اندثرت ولا تزال آثارها تدل عليها

وتنقسم العيون عدا ذلك قسمين من حيث عذوبة الماء

١ — عيون عذبة

٢ — عيون مالحة . .

على أنّ ماء العيون العذبة في سيوة ، أقل عذوبة من ماء عيون الواحات الأخرى ، ولعلّ ذلك راجع الى أنها في صعودها الى سطح الأرض تخترق في طريقها الطبقات الملحية الثلاثية فتأخذ من أملاحها مقادير كبيرة . . وأهم الأملاح التي تحتويها هي الكلور وكلوريد الصوديوم بنسب كبيرة جدًّا .

وتنقسم العيون قسمين من حيث حرارة الماء :

١ — عيون باردة : وهي التي درجة حرارة مائها ١٥° سنتجراد فأقل كعين أم مفلي وغابة جويدى .

٢ — عيون حارة : وهي التي درجة حرارة مائها ٢٠° سنتجراد فأكثر كعين ملول والجوبة وطموسي على أن يكون ذلك في فصل الشتاء وقتما تكون درجة حرارة الجو بين ٨° : ١٠° سنتجراد .

ويمكن تعليل اختلاف درجة الحرارة في ماء العيون ، باعتبار أن المياه ذات الحرارة المرتفعة تأتي من الطبقة المائية نفسها ، فتنفذ مباشرة وبسرعة صاعدة نحو سطح الأرض دون أن تمر في عروق أرضية ، وبذا تكون محتفظة بدرجة حرارتها الأصلية ، أو تفقد شيئًا قليلاً منها . . أما المياه المنخفضة الحرارة فيمكن افتراض أنها بسبب نفوذها في تضاعيف نفس هذه الطبقات ، أثناء صعودها تفقد جزءًا من حرارتها الأصلية ، فتنخفض درجة هذه الحرارة . . ؟

ويلاحظ أن عيون سيوة لا يُعرف بالضبط مقدار ما تنتجه من الماء ، إذ لم يعمل لها ميزان تصريف ، على أن وزارة الأشغال قد قامت بحفرها وتطهيرها وبناء أفلبها ، ولكنها لم تقدر كمية الماء الناتج من كل منها . . !

(ب) قارة أم الصُّغَيِّر

وهي واحة صغيرة منعزلة يتصل منخفضها بمنخفض واحة سيوه من الغرب ، ومنخفض القطارة من الشرق ، وتحتوي على عشر عيون ماؤها مملوء بالأملاح لدرجة يتعذر معها شربه ، ولا يوجد بين هذه العيون غير عين واحدة عذبة وهي « عين القطارة » التي يستقي منها سكان الواحة ، وعين أخرى أكثر معدنية منها تسمى « عين ياجا » ويلجأ اليها الكثيرون لجلب الماء للاستعمالات المنزلية لقربها من القرية إذ الأولى تبعد نحو العشرين دقيقة ، وحاملات الماء ضعاف يتعذر عليهن المسير هذه المسافة وهن يحملن أحمالاً ثقالاً .

وكل ما قيل في عيون سيوه يمكن أن يقال في عيون « قارة أم الصغير » ولكن مع التبسيط .. !!

(جـ) الواحات الخارجة

العيون والآبار كثيرة الانتشار بالواحات الخارجة ، ولكنها مع كثرتها لا تفي بالغرض المطلوب ، ذلك لأن مساحة الأراضي القابلة للزراعة تزيد عن ٣٤٠٠٠٠ فداناً ويقع أغلبها في المنطقة الممتدة بين « بولاق » « وباريس » (١٣) في سهل خصيب لا يوازيه في خصبه غير الجزر النيلية على أن الحكومة آخذة في هذه السنوات الأخيرة في العمل على استعمار هذه المناطق زراعيًّا بإخراج عيون جديدة . واذا لم يوقف هذا المشروع الجليل ستصبح الواحات الجنوبية غنية في مائها وثروتها الزراعية في وقت وجيز .

ومن طريف ما يذكر أن الأهلين عندما علموا أن الحكومة قد عقدت النية على استخراج عيون جديدة ، ولم يعد بينها وبين التنفيذ إلا اختيار مواقع هذه العيون . عند ما علموا ذلك راحوا يتظلمون خوفاً من أن تؤثر هذه العيون الجديدة على ما تنتجه عيونهم القديمة من ماء .. وذلك قياساً على ما حدث في آبار (شركة استغلال مصر الغربية) التي تأسست في عام ١٩٠٥ بقصد استثمار مساحة كبيرة من الأرض الواقعة شمالي الواحات الخارجة ، وكان رأس مال هذه الشركة يقدر بحوالي ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه مصري ، موزعاً على أسهم ، ولكي تتصل هذه الأراضي بوادي النيل ، مدت الشركة خطًّا حديديًّا ضيقاً ، بين الواحات الخارجة ومحطة المواصلة بوادي النيل وأطلقت على محطاتها بالواحات اسم « الشركة » وهي أول محطة يقف عندها القطار بعد أن يقطع طريقاً يمتد في جوف الصحراء

هابطاً تارةً صاعداً طوراً .. مسافة ٢١٠ كيلومتراً ، وتلي محطة الشركة ، محطة « المحاريق » (١٤) ثم محطة الخارجة . وهي آخر الخط . ولقد كان في النية مد هذا الخط الى الواحات الداخلة على نفقة السلطة العسكرية في عام ١٩١٩ . وصار العمل فيه فعلاً الى نقطة الغراب التي تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً غربي مدينة الخارجة ، ولأمر ما توقف العمل عن إتمام مد الخط الى الداخلة .

وقد انحلت هذه الشركة في عام ١٩١٤ لنضوب مواردها المالية . فقد استنفد مد الخط الحديدي ، جزءاً كبيراً من رأس المال . وأنفق جزء كبير آخر في شراء الأراضي والآلات الزراعية ، وحفر الآبار ، وضاع الباقي بين مرتبات الموظفين الضخمة التي كانوا يتقاضونها ، وكانوا جميعاً بين انجليز وأمريكان .

وعند ما انحلت الشركة استولت مصلحة السكة الحديد الأميرية على الخط الحديدي الموصل بين وادي النيل والخارجة ، ونقلت اليه القطارات والعربات التي كانت تعمل بين أسوان والشلال ولا يزال تحت إدارتها حتى الآن يؤدي خدماته الجليلة لسكان تلك البقاع النائية ، من نقل محصولاتهم وما يصدرونه من منتجاتهم الى استيراد ما يحتاجون إليه من وادي النيل .. !!

ولقد كانت مساحة الأراضي الموضوعة تحت تصرف الشركة كبيرة جداً إلا أن المساحة القابلة للزراعة كانت أول الأمر لا تزيد عن الألفين وخمسماية فدان ، وزرع بها بنوع خاص القمح والشعير والقطن والفول ، وقصب السكر وغيرها من محاصيل الاستغلال .

أما الآبار التي حفرتها الشركة ، وكانت حافزاً لوقوف الأهالي في وجه الحكومة عند ما بدأت تحفر العيون الجديدة . فقد كان التداخل بين مياهها ظاهراً بشكل واضح . إذ أن البئر رقم (٦) التي كان معدل تصريف مائها سبعة فراريط (١٥) عند حفرها ، قد انقطع مائها عن السيلان . عندما حفرت البئر رقم (٥) وكذلك البئر رقم (٨) كان مقدار الماء المتصرف منها كبيراً إلا أنه تحول للبئر رقم (١٣) عند حفرها .. وهذه الأخيرة فقدت جزءاً كبيراً من مائها عند حفر البئر رقم (٣٩) وكذلك الحال في البئرين رقم (٣٧ و ٣٨) فقد قل تصريفهما عند حفر البئر رقم (٥١) التي كان تصريفها يقدر بثمانية فراريط . !

وقف الأهالي بما تعودوه من دل على الحكومة أمام هذا المشروع ، وإن الأهالي الجدود لدلاً على الحكومة غريباً حقاً .. ولكن المهندس الأمريكي الذي نيط به الأمر . استطاع أن يطمئنهم ، إذ أكد لهم أن المستوى المائي الذي سيخرج منه ماء العيون التي سيحفرها لا يتصل بمستوى ماء عيونهم القديمة في شيء .. وحقيقةً فقد استخرج العين

الأول على مستوى ١٦٠٠ قدم بينما الأهالي يستخرجون عيونهم على بعد ٦٠٠ قدم فقط وذلك بإنزال ماسورة الحفر الى أصفحة مائية على عمق أبعد من الأصفحة المائية التي يحفر عليها الأهلون .. !!

ولقد تدفقت مياه « عين الفاروقية » التي استخرجت بجوار محطة سكة حديد مدينة الخارجة ، حتى أنها وازت أقوى العيون القديمة إذ بلغ تصرفها ٤٨ قيراطاً . وإن الماء لينحدر من فوهتها كالشلال له دوي وله زبد .. وجريانه شديد الاندفاع . حتى أنه ليبعث الروعة في النفس الى حد كبير .. !!

ومما هو جدير بالملاحظة أن ماء هذه العين يحتوي على بعض الأملاح والأحماض التي تساعد على الهضم بشكل ظاهر ، حتى أن الأهلين الفقراء لا يحاولون الشرب منها خوفاً من أن تعمل مياهها على هضم الكتلة الغذائية سريعاً فيهاجمهم الجوع ، وتكون النتيجة أن تتعدد الأكلات اليومية ، وهذا ما لا يستطيعونه .. ولقد تنبهت وزارة الصحة الى قيمة هذا الماء . فرفعت نبأه الى الأعتاب الملكية ، وكانت النتيجة أن أعجب به جلالة الملك فاروق الأول ، وأصدر جلالته أن يؤتى له بمقدار منه كل أسبوع بقصد استعماله في الشرب ، فكلفت مصلحة الحدود ، جاويشاً من رجال الهجانة بالذهاب كل أسبوع الى الواحات الخارجة بالقطار ومعه صندوق به زجاجة كبيرة ، تملأ بواسطة وبحضور الدكتور والمحافظ من فوهة العين مباشرة ، وتختم بخاتم المحافظة ، وترسل برفقة الجاويش المذكور الى السراي الملكية . من هذا يتبين لنا ما لهذا الماء من قيمة ، وتأثير حسن على الصحة .

حفر العيون

يتبع في حفر العيون طريقتان : (١) الطريقة القديمة (٢) الطريقة الحديثة

١ — أما الطريقة القديمة فهي التي يتبعها الأهالي ، عندما يقومون بحفر عين أو بئر وهي طريقة عتيقة ومملة ، إذ أنهم في بعض الأحيان يستغرقون من الوقت سنة كاملة أو أكثر في حفر بئر واحدة ، ملاقين في سبيلها صعاباً جمة ، ويرجع ذلك الى رداءة الآلات التي تستخدم في الحفر ، إذ أنها بطيئة ، تعتمد في كل شيء على قوى سواعد الرجال . وكثيراً ما يصيبها العطب أثناء العمل ، فيأخذون وقتاً طويلاً في إصلاحها . زد على ذلك قلة الأيدي العاملة التي لها دراية بحفر الآبار ، على أن الطريقة المتبعة عند الشروع في حفر عين أو بئر هي أن يجتمع من عقدوا النية على ذلك . ويتفقوا على شروط فيما بينهم ، تبين هذه الشروط حق كل منهم في العين بعد خروجها ، وما عليه أداؤه أثناء الحفر ، على أن أهم شرط

بينها هو أن كل عامل يشترك في حفر العين أو البئر يصبح مالـكا فعليًا لجزء منها ، وجزء من الأراضي التي ترويها ، ومنهم من يشترك في الحفر بماله ، ومنهم من يشترك بساعده . فإذا فُرض أن من اشتغلوا في إخراج العين أو البئر كان عددهم مائة بين منفق مال وعامل بساعده ، فتكون النتيجة أن يكون نصيب الواحد منهم جزء من مائة جزء .

وإذا ما اتفقوا على هذه الشروط جميعًا بدأوا في العمل . وهناك بعض من ثراة الواحات ينفقون على حفر آبارهم من مالهم الخاص حتى إذا ما خرجت صارت ملـكا خالصا لهم . وهناك بعض آخر اتخذ حفر الآبار وبيعها تجارة ، إذ يحفرون البئر ثم يبيعونها بعد خروج مائها ويربحون فيها .

* * *

أما طريقة الحفر ، فتبدأ بأنهم يحفرون حفرة مربعة مساحتهـا مترا مربعا ، وعمقها خمسة أو ستة أقدام . وتبطن جوانب هذه الحفرة بجذوع النخيل المشقوقة ، كي لا تسقط هذه الجوانب على القائمين بالحفر ، ويستمرون بعد ذلك في الحفر والتبطين على هـذا المنوال الى أن يصلوا طبقة لينة . عند ذلك يكون القاع شبه عجينة ، فتسوى هذه الطبقة (بمطرين) ويضعون فوقها (صندوقا) — كما يسمونه — وهذا الصندوق مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٣٢ بوصة ، وارتفاعه يتراوح بين ٦ و ٨ بوصات . وليس لهذا الصندوق قاع ولا غطاء . ويوضع على السطح الذي سبق أن سوى (بالمطرين) على أن يكون وضعه في وسطه تماما ، وبدون أي ميـل . ثم يملأ الفراغ الموجود حول الصندوق بالمونة والحصى حتى اذا ما وصلت (الدَّكة) الى الحافة العليا للصندوق ، وضعوا فوقه صندوقا آخر مماثلا له ودُكَّ حوله كما صُـنع بالصندوق الاول .. وهكذا يضع الصناع صندوقا فوق صندوق حتى يصلوا الى حافة الحفرة وبعد ذلك يؤتى بمثقاب قطره تسع بوصات يسمى (الأيمون) ويبدأ في حفر ثقب في الأرض عمقه من ٤٠ : ٥٠ قدما — كما يتراءى لرئيس العمل — وفي نفس الوقت تكون هناك (ماسورة) من سيقان النخيل أو الدوم ، قد فُـرِّغت ، وقطرها الداخلي ثماني بوصات ، والخارجي تسع بوصات ، تكون قد أعدت لتغرس في الثقب الى آخره ، فاذا لم يصلوا الى حجر الماء استعملوا مثقابا آخر قطره ثماني بوصات ، يثقبون به الأرض إلى عمق ٤٠ قدما أخرى ثم تغرس به (ماسورة) ثانية أقل بوصة في قطرها من سابقتها ، حتى يمكنها المرور في داخلها .. وهكذا الى أن يصلوا إلى حجر الماء .. !!

وعند الوصول إلى حجر المـاء الذي يتكوّن عادة من « الكوارتز » الذي يسهل ثقبه بواسطة مثقاب خاص ، غير الذي تقدم ذكره . فإذا ما اخترق ، اندفع الماء من ورائه

فوّاراً إلى سطح الأرض .. وهـذا الحجر هو الحائل بين الأسفنجة المائيـة وما فوقه من طبقات .. !!

وبعد تفجر الماء تقدر كية المياه الناتجة من البئر أو العين ليمكن معرفة كم قيراطاً تنتج حتى يتسنى معرفة كم فداناً يروي ماؤها .. وكم تستحق الحكومة ضريبة عنها . إذ الضريبة تدفع عن المـاء ، لا عن الأرض . وذلك بحساب القيراط المائي خمسين قرشاً .. أما القيراط فهو عبارة عن كمية الماء التي تكفي لري خمسة أفدنة في فصل الشتاء ، وأربعة أفدنة في فصل الصيف .. هذا إذا كان تصريف العين غزيراً ، إذ الماء يتدافع قويّا فيساعد على سرعة الري . أما إذا كان تصريف العين قليلاً وضعيفاً فإن سرعة الماء لا تقوى إلا على ري أربعة أفدنة شتاء وثلاثة في الصيف .

ويقوم بعملية القيـاس ، رجل يدعى (رئيس الدواليب) معترف به من الحكومة ، وحكمه نافذ على أي عين . وتنحصر عملية القياس في أن يضعوا في غدير العين وهو جار فككاً من الخشب له قاعدة وجانبان . ويوضع بحيث تكون القاعدة ملاصقة لقاع الغدير بحال لا تسمح بمرور الماء إلاّ من فوقها ثم يمنع مرور الماء بين حافتي الغدير والضلعين الجانبيين للفك ، ويترك الماء يمر من الفك حتى يأخذ سيره الطبيعي . ثم يؤتى بمسطرة مقسمة إلى ثمانية أقسام متساوية مجموعها ½ ٧ سنتيمتراً تسمى (الطابية) وتبلل الطابية وتدفن في التراب بضع دقائق وبعد ذلك تؤخذ وتوضع عمودية على قاع الفك تماماً . وهنا يمسح الماء الجاري ما علق بالجزء المغمور به — من الطابية — من تراب ، فيكون هذا الجزء هو ارتفاع الماء .. !!

أما الارتفاع فثابت لا يتغير ، وأما الجانبان فلا أساس لها في القياس إلاّ لضبط التصريف ، وأما القاعدة فعبارة عن الارتفاع مكرراً يطول ويقصر على حسب غزارة التصريف ، فإن كان التصريف غزيراً تباعد الجانبان ، وذلك بتضعيف قيمة الارتفاع في القاعدة ، وبالعكس إذا كان التصريف قليلاً .. وبذلك تكون العملية كالآتي :

$$\text{القيراط} = \frac{\text{القاعدة} \times \text{الارتفاع}}{٨} = \text{تصريف العين وعدد ما تنتجه من القراريط المائية .}$$

مثال ذلك : نرمز أولاً للارتفاع بحرف « ا » وللقاعدة بحرف « ق » ونفترض أن الماء وصل في (ا) إلى الخط السادس ، وأن القاعدة (ق) تساوي (ا) خمس مرات فتكون قوة ماء العين هي :

$$\frac{١ ٦ \times ق ٥}{٨ \text{ (رقم ثابت وهو أقسام ا كلها)}} = \frac{٣٠}{٨} = ٣ \tfrac{٣}{٤} \text{ قيراط .. !!}$$

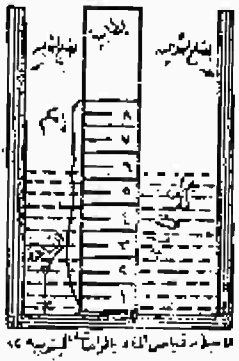

ولكن هذه الطريقة في تقدير تصريف العيون ناقصة إذ يتحتم لكي يمكن ضبطها أن نعرف السرعة لتيار الماء المراد قياسه ، فبعض العيون قوي التصريف ، سريع الجريان ، فلا يمكن أن تكون هذه العيون التي هذه حالها كتلك البطيئة . ولقد أرى أن الماء البطيء يتراكم ويعلو أكثر من السريع هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن « رئيس الدواليب » (١٥ م) غفر الله له . يستعمل في القياس طريقة خطأ أيضاً . إذ يحبس ماء العين في المجرى وقتاً حتى يرتفع مستواه ثم يبدأ القياس ، فينتج عن هذا أن يكثر عدد القراريط في حين أن ماء العين قليل ، ولا يتبع الريس هذه الطريقة العقيمة ، إلا إذا كان أصحاب العين ليس في « عينهم نظر » فلم يتحفوه بشيء لحسابه الخاص ، وأما اذا أعطوه ما يجود به الخيرون . فإن الغدير يحفر مجراه حتى ينحدر ماؤه ويرق ، ثم تجري عملية القياس . . . وتكون النتيجة بالعكس ، ويتبع ذلك قلة الضريبة التي تدفع عن ماء العين للحكومة .

٢ — ﴿ الطريقة الحديثة ﴾ وتجري بالماكينات البخارية ، وذلك بإنزال (ماسورة) قاعدتها حلزونية حادة تغوص في الأرض بقوة الماكينة ، وهذه الاسطوانة الحلزونية القاعدة هي الآلة الثاقبة ، وتطرها حوالي خمسة عشر بوصة ، وبعد أن تغوص هذه الآلة الثاقبة في الأرض بمقدار وصلة من الأنابيب التي تستمد في جوف الأرض مكان الطين الذي خلا جوف الاسطوانة الثاقبة منه يُنزلون الماسورة ثم يتبعون أنبوبة بأخرى ، حتى يصلوا الى الأشنجة المائية . وكلما تعمقت آلة الحفر في الأرض صبوا الماء في داخلها لكي يجعل القشرة الأرضية أكثر ليونة تحت من الآلة الثاقبة ، وهكذا الى أن يصل الحفر الى الطبقة المائية ، وقد تستغرق هذه العملية حوالي ثلاثة أشهر أو أكثر حسب قرب الماء أو بعده . ويكلف حفر البئر أو العين ٣٠٠ جنيه مصري .

ولقد أنشئت عيون كثيرة بهذه الطريقة ، وانتفع بها الأهلون انتفاعاً كبيراً . وفيها عين الفاروقية بالخارجة . وقد بدأت مصلحة الميكانيكا والكهرباء في العمل بهذه الطريقة بالواحات الخارجة في عام ١٩٣٨ وأخرجت عين الفاروقية على عمق ١٥٥٣ قدماً وبلغ تصريفها ٤٣٠ جالوناً في الدقيقة ، وسمك الطبقة الأسفنجية التي بها الماء ٢٠ قدماً وبلغت نفقات حفرها ٩٥٠ جنيهاً . . ومما هو جدير بالذكر أن هذه العيون الجديدة قد لا تعمر طويلاً

إذ أن المواسير الحديدية التي ينزلونها في جوف الأرض . لا تلبث أن يعلوها الصدأ ، فتتآكل ، وتصير غير صالحة لصيانة الماء من أن يتوزع في الطبقات الأرضية التي يمر فيها، وبذلك تضيع الفائدة التي حفرت من أجلها ، ويذهب التعب والنفقات التي أنفقت في سبيلها سدى ، ولو أنهم جعلوا بدلاً من هذه (المواسير) الحديدية ، أخرى من خشب الدوم ، الذي يكثر في الواحات الخارجة ، ويستعمل في العيون القديمة لهذا الغرض نفسه ، ومنذ مئات السنين ، لكان أضمن لنجاح هذا المشروع العظيم ، ذلك لأنَّ خشب الدوم لا يؤثر فيه أي عامل طبيعي ، فيبقى على مر العصور مصارعاً الزمن والتلف والتآكل .. أما وهم يستعملون (المواسير) الحديدية ، فإنه يخشى على المشروع من أن ينهار من أوله وإن كان ولا بدَّ من استعمال الحديد فليُطلى بالقار .

وللماء حسابان : حساب الحكومة للأهالي . وحساب الأهالي لبعضهم

١ — أما حساب الحكومة للأهالي فبالقيراط ، والقيراط ٢٤ سهماً ويدفع عنه ضريبة قدرها ٥٠ قرشاً سنويًّا .

٢ — وأما حساب الأهالي لبعضهم فبالوجبة .. والوجبة تساوي إثنى عشر ساعة .. وهي أربعة وعشرون سهماً .. وعادةً يباع السهم المائي بمبلغ يتراوح بين ٢ : ٤ جنيهات حسب كثرة قراريط الماء التي تنتجها العين ، وحالة مالكيها المالية .

ولضبط الوقت لإمكان معرفة مواعيد الري لكل مالك في العين يستعملون لذلك ساعات رومانية قديمة تسمى الساعات الرملية (١٦) . وأهم العيون بالواحة هي :

١ — عين الفاروقية : وقد سبق الكلام عنها ..

٢ — عين الشيخ : وهي نبع عظيم يرتفع الى أكثر من مترين ونصف متر عن مستوى سطح الأرض المحيطة بها ، ويجري جدولها المرتفع بين ظلال النخيل الى الحدائق الغناء التي يرويها . وينحدر من هذا المجرى شلال صغير له رونق وجمال بخريره الدائم ، ومائه الصافي النمير يأخذ طريقه الى مصارف وزارة الصحة ليغذيها بمائه حتى لا تموت — بسبب الجفاف — الأسماك التي تربيها الصحة في هذه المصارف بالواحات جميعاً لإبادة بعوض الملاريا اذ أنها تتغذى على بيضه ورقاته ، وترسل هذه الأسماك الى الواحات بالطائرات بين حين وآخر . وقد بلغت في بعض العيون أحجاماً كبيرة حتى أن الإيطاليين إبان إحتلالهم لسيوه كانوا يصيدونها ليأكلوها . ومن أهم صفات هذه الأسماك أنها عمياء لا تبصر .

٣ — عين القلعة : وهي عين أكبر من عين الشيخ قليلاً يجري ماؤها في قنوات ثلاث ، اثنتان خصوصيتان وواحدة عامة. أما الخصوصيتان فهما مملوكتان لعائلتين بالواحة ،

وأما العامة فلكل الأهالي . يروون منها نخيلهم وحدائقهم وبعض حقول الأرز .

٤ — عين الرصّاص : وتعتبر أهم عين في ناحية باريس . وكانت في بادىء الأمر عيناً صغيرة ، تصريفها لا يتعدى الخمسة قراريط . ولكن الأهالي اجتمعوا وبدءوا في جفرها وحفرها من جديد .. وبينما هم يحفرون وهم مطمئنين الى أن الماء لا يزال بعيداً ، فاذا الماء يفور ، ويقذف بالآلات المستعملة في الحفر ، في وجه الحفارين ، وكان في تدفقه كالسيل الجارف .. وكبّر الرجال وهللوا .. ثم حفروا لها المجرى ، وبقياسها وجد أن تصريفها أكثر من سبعين قيراطاً .. ثم أخذ يتناقص حتى بلغ الخمسين قيراطاً .. !!

وتقع هذه العين في سهل فسيح بين غردين من الرمال ، وتبلغ مساحة السهل حوالي ٤٠٠ فدان .. لا تزرع جميعها ، على أن المزروع يغل غلة وافرة .. وحوض العين مختلف في مناسيب الارتفاع ، فبينما نجد أرضاً ارتفاعها متراً ، نجد أخرى أقل منها ، وثالثة أعلا من الأولى .. وينحدر الماء الى جميع الطبقات فيرويها (بالراحة) وهذه النقمة من الأرض في حاجة الى إصلاح ، حتى يمكن استغلالها على الوجه الأكمل ..

٥ — عين دخاخين : وينحدر ماؤها من أعلا الجبل على شكل هلالات متعاقبة على منحدر الجبل الذي تغطيه أشجار النخيل والسنط والبرتقال والعنب والليمون في شكل مدرج وكأنما هي غابة من غابات خط الاستواء الغزيرة النبت ..

وأخذني العجب بمنظرها الخلاب والشمس مائلة من وراء الأغصان ترسل بأشعتها التي تتلطف من حرارتها ظلال الأشجار الباسقة والماء المتكسر فوق الصخور والأحجار .. حقاً .. إنه لمنظر ساحر يحمل النفس الى عوالم غاية في الروعة والجمال . !

ويبلغ عدد العيون والآبار بالولسات الخارجة ٢١٤ عيناً وبئراً طمرت منها إحدى عشر والباقية جارية .. تنتج ٨٢٤ قيراطاً من الماء موزعة كالآتي :

البلد	عدد العيون	الجاري منها	المطمور	عدد القراريط	أقل عمق	أبعد عمق	ملاحظات
الخارجة	٩٣	٨٦	٧	٤٢٣	٢٠ قدماً	٧٨٠ قدماً	ويلاحظ أن عدد قراريط الماء المذكور بهذا الجدول هو مقدار الماء الذي ينتفع به الاهالي فقط.
المحاريق	٢٨	٢٧	١	٧٠	٥ ١٩٠	٥ ٩٠٠	
جناح	٠٩	٠٩	—	٣٦	٥ ٠٤٠	٥ ٥٠٧	
بولاق	٣٥	٣٢	٣	١٢٣	٥ ٨٠	٥ ١٠٠٠	
باريس	٤٩	٤٩	—	١٧٢	٥ ٥٥	٥ ٦٠٠	

ومن هذا الجدول يتضح لنا ان أقل بلاد الواحات الخارجة ماء ، هي قرية جناح ، ولذا فإنك ترى الفقر ظاهراً على أهليها ، والكآبة تظللها بظل أقتم .. ويرجع السبب في هذا لكسل الأهلين واعتمادهم عيونهم وتقاعدهم عن القيام بحفرها وعدم دأبهم على المحافظة عليها .. بل يتركونها نهباً لسافيات الرمال تعبث بها فتصد مجاريها منصرفين عنها بالهجرة الى القاهرة وصوف لا يمضي زمن طويل حتى تصير هذه البلدة أثراً بعد عين اذا لم يتداركها الله برحمته

(د) الواحات الداخلة

.. والماء دائماً مشكلة المشاكل في الصحراء وخصوصاً في الواحات الداخلة فلا تقوم العداوة بين فردٍ وفرد ، إلاّ من أجل الماء ، ولا تحقد بلد على أخرى ، إلاّ لأن هذه منخفضة المستوى عنها ، وعيونها تسحب ماء عيونها .. وكما سبق أن بينا على قدر الماء الذي يملكه الأفراد تقدر ثرواتهم .

والعيون تكثر بالواحات الداخلة وتنقسم ثلاثة أقسام

١ — عيون جارية : وهي التي ينساب الماء منها الى الزراعات فيرويها بغير آلات رافعة

٢ — عيون غير جارية : وهي التي يرفع ماؤها بالسواقي .

٣ — عيون مطمورة : وهي التي جفت وردمت . ولكن أصحابها لا يزالون يدعون ملكيتها ، ويؤدون عنها حصة الحكومة عن كل قيراط مما كانت تنتج خمسين فرضاً .. يقودهم في ذلك الأمل الى أنهم ربما يستطيعون إخراجها في المستقبل ، ولكن أهالي البلاد جميعاً يقف بعضهم لبعض بالمرصاد ، فاذا ما أراد أحد إخراج عين طمرت ، ضج الآخرون بالشكوى ، لولاة الأمور في مصلحة الحدود ، مدعين أن فلاناً سيخرج العين الفلانية ، وهذه العين خطر على العيون الأخرى ، لأنها تقع في مستوى أقل من مستواها ، وأنها ستسحب ماءها بلا ريب ، وتقوم مصلحة الحدود بدورها فتمنع البادىء في الحفر من إتمام عمله .. حتى ضاقت بهم الحال . وبرمت مصلحة الحدود بكثرة شكاواهم . . وأخيراً فكرت الحكومة في اخراج عيون جديدة ليست ملكاً لأحد ، فاذا بهم ينهجون نهج أهل الواحات الخارجة ، في محاولة إيقاف العمل ، بنفس الحجة التي دائماً يتخذونها ذريعة لمنع الخير عن بعضهم البعض .. إلاّ أن شكوى الشاكين لم تلق اهتماماً ، وبدىء بالعمل فعلاً في البلاد القليلة الماء أولاً ، فخرجت عين القارونية (بموط) (١٧) وقد بدأ العمل فيها في أوائل اكتوبر سنة ١٩٤٠ بإشراف المهندس المصري (محمد افندي يوسف طويلة) واستغرق الحفر ثلاثة أشهر ... تفجرت بعدها العين بماء غزير . إذ بلغ تصرفها في الدقيقة ١٢٨٠ جالوناً

من المـاء من (ماسورة) قطرها عشر بوصات ، وبلغت نفقات الحفر ٥٠٠ جنيه مصري تقريباً . أما عمقها فبلغ ٧٦٤ قدماً . وهاك قطاعات لطبقات الأرضية التي صادفها المهندس أثناء الحفر :

عمق	سمك الطبقة بالقدم	نوعها	البعد عن سطح الارض بالقدم
	٨٣ قدم	طين أحمر	
	٢٧٠	طبقات رملية مختلفة	وهذه هي الأصفنجة المائية الأولى التي يحفر عليها الأهالي لاخراج آبارهم بطريقتهم وتبعد عن سطح الأرض ٨٣ قدماً
٧٦٤	٢٠٥	طين أزرق	٣٥٣ قدماً
	٢٠٦	طبقات رملية مختلفة	وهذه هي الأصفنجة المائية الثانية التي تحفر الحكومة عليها في الواحات الداخلة . وتبعد عن سطح الأرض ٥٥٨ قدماً

وجملة العمق الذي وصلوا اليه ٧٦٤ قدماً

وعند ما تنفجر ماء العين قامت مصلحة الحدود بتوزيعه على المستحقين الذين لا يملكون ماء ، أو يملكون ماء قليلاً . واحتفظت لنفسها بالنصف من ماء العين ، على أن تفرض عليهم إيجاراً للماء الذي أعطتهم إياه بعد ثلاثة أعوام ... !

وبعد الانتهاء من فاروقية موط ، أخذت الماكينة تتنقل بين البلدان الأخرى مبتدئة دائماً بالبلدان القليلة الماء ، ثم التي أحسن حالاً منها وهكذا . . وكانت النتيجة أن خرجت في القلمون عين لا تقل عن فاروقيــة موط في تصريفها ، وبذلك أنقذ القضاء أهل القلمون من شيئين :

الأول : طول المسافة التي يقطعونهـا لاجتلاب ماء الشرب إذ أن ماء العيون المحيطة بالبلدة والقريبة منها مرٌّ وبه مادة حديدية قويةجداً حتى أنه إذا وضع قليل منه على الشاي اسود لونه وصار قاتماً .. وهذا يستعمل في المنازل للضروريات .

والأمر الثاني : هو أن الأطفال ينحدرون الى مجاري هـذه العيون فيستحمون فيها ، وتؤثر المياه الحديدية على عيونهم فتصير أنصف مقفلة كالعوراء وما هي بعوراء (فرث كريته)

أما وقد تفجر الماء العذب حول القرية فقد تقاضى الأهالي من هذين الأمرين .

وخرجت عيون أخرى بالجديدة وبدخلو ، ولا يزال العمل مستمراً .. !!

وتحاسب الحكومة الأهالي على الماء كالخارجة .. ويحاسب الأهالي بعضهم بعضاً .. بالأمية .. والأمية = ١٢ ساعة وتساوي أيضاً ٣٠ قدماً وتساوي أيضاً ٦٠ حبة كبيرة وتساوي ١٢٠ حبة صغيرة ومقدار الحبة الصغيرة ست دقائق .. ويستعملون لضبط الوقت في توزيع الماء ساعات مائية (١٨)

ويؤخذ من كشوف الحصر الذي أجري على قراريط الماء بالواحات الداخلة عام ١٩٠١ أن بلاد الواحات الداخلة كانت تجري عيونها وينابيعها بحوالي ٢٤٨٢ قيراطاً من الماء يزرع عليها مساحة ١٢٤١٠ فداناً ، وكان الأهالي قليلين ، وأما الآن وقد صار عددهم يربو على العشرين ألفاً فان ماءهم نقص الى ١٨٧٢ قيراطاً .. وتبع نقص الماء ، نقص في المساحة المنزرعة إذ بلغت ٩٣٦٠ فداناً مما أدى الى سوء الحال وضياع بعض الزراعات التي كانت تغل غلة وافرة . ولنضرب مثلاً على ذلك ما ترتب على جفاف عين الرحمة بالراشدة ، وكانت تنتج واحداً وعشرين قيراطاً ، وصارت بعد جهد جهيد لا تنتج غير ثلاثة قراريط .. وسُمِّيَت بئر الرحمة ، وبجفافها مات من الأشجار ٤٠٠٠ نخلة .. و ٥٠٠٠ شجرة مشمش و ١٠٠ زيتونة و ٥٠٠٠ شجرة برتقال . ولو فرض لكل نخلة عشرة قروش كغلة في العام ولكل شجرة مشمش مثلها ، ولكل زيتونة عشرين قرشاً ولكل شجرة برتقال عشرة قروش أيضاً لكانت الخسارة التي تكبدها أهالي هذه القرية :

٤٠٠٠ × ١٠ + ٥٠٠٠ × ١٠ + ١٠٠ × ٢٠ + ٥٠٠٠ × ١٠ = ١٤٢٠٠٠

قرش في العام عدا ما كانت تنتجه أراضي العين من محاصيل القمح والأرز .

على أن الأمل قوي في أن مشروع الماء الجديد سيعيد الى البلاد ما كانت عليه من عز ورفاهية . ومن الغريب الذي يلاحظ ان الماء قل ولا يزال الأهلون يؤدون عنه الضريبة كما ربطت في عام ١٩٠١ والعيون بعضها فاض ماؤه من زمان بعيد . .

وماء عيون الواحات الداخلة مرتفع الحرارة .. وتبدو هذه الظاهرة بوضوح في آبار الشمال أكثر من آبار الجنوب ، ذلك لأن درجة حرارة البلدان الشمالية مرتفعة جداً إذ تبلغ في بئر « الدينارية » مثلاً (٤٠°) سنتجراد وهذه البئر عمقها ١٤٤ متراً . أما بئر العمدة المشهورة في قصر الداخلة فتبلغ حرارة مائها أيضاً (٤٠°) أما البئر الحادية فكان ماؤها يُنضج البيض إذا وُضِعَ فيه بضع دقائق وذلك منذ سبعين عاماً كما يقول بعض المعمرين في الداخلة .

وقد ذكر (بنذل) أنه من الصعب معرفة الأسباب التي يعلل بها ارتفاع درجة حرارة مياه آبار الواحات الداخلة ، لأنه لا يمكن تعليلها بارتفاع حرارة الصحراء . مع مراعاة العمق الشاسع للطبقة المائية التي يأتي منها الماء . ولا يمكن أيضاً تعليلها بالحرارة التي تتولد من احتكاك قشع الصخور المتحركة لأنه لا يوجد هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن تحركاً كهذا يحدث في هذا الجزء من صحراء ليبيا .

ولكن يمكن أن يُستنتج أن ارتفاع حرارة مياه هذه الآبار إنما يُعزى الى سبب واحد وهو كثرة العمق الذي تأتي منه هذه المياه ، وأنها إنما بلغت هذا العمق في باطن الأرض أثناء مرورها فيه ابتداءً من المنطقة التي بدأت منها ، الى المكان الذي خرجت فيه بالواحات الداخلة

وذكر (أونوميبادور) أن أهالي الواحات الداخلة كانوا مشهورين بحفرهم في حفر الآبار إلا أنهم في خلال غزو العرب أهملوا أمر حفرها فانطمر أغلبها ، وبطلت زراعة مساحات كبيرة من الأرض . .

ومن أجل العيون بالواحات الداخلة العين الموجودة باستراحة عمدة « الهنداو » فانها جميلة مستطيلة صافية يجري غديرها في حديقة منظمة تظلله أشجار الموز والمنجو . وحولها يقع منحل وزارة الزراعة الذي ينتج غلة وافرة .

والماء يخرج فواراً في شكل يلذ للعين أن ترقبه ، دون أن يعتريها الملال . .

ومما يكثر ترديده على السمع في الواحات الداخلة (آبار مبهوب) وهي عبارة عن مجموعة آبار ، مكونة من إحدى عشر بئراً حفرت حوالي عام ١٨٨٥ بواسطة « الشيخ محمد مبهوب » تلميذ السنوسي الكبير ، الذي كان من قبله ينشر الدعوة للمذهب السنوسي الذي يسيطر على صحراء ليبيا ، بين برقة وطرابلس ومصر . . وتقع هذه الآبار في أرض منخفضة المستوى ، لذا فهي تمتاز بغزارة مائها ووفرة غلة أراضيها ، وقد اعتبرتها الحكومة أخيراً بين ما اشترته من أملاك السنوسية في صحراء مصر الغربية . . ! !

(هـ) الواحات البحرية

وتعتبر الواحات البحرية ، أقل الواحات الغربية ماء ، ذلك بالنسبة لسعة الأراضي التي يجب أن تزرع ، والقابلة للزراعة ، لكي تفي بحاجة الأهلين الكثيري العدد ، إذ يزيد عدد السكان عن الستة آلاف نسمة ، ويرجع السبب في قلة الماء هكذا الى أن الأهلين لا يحاولون استخراج عيون جديدة إلا نادراً ، وذلك لضعف بنيتهم ، وعدم قدرتهم على الكفاح ولقلة ذات اليد . ولما يوصفون به من الكسل والتواكل في أغلب الأحيان . وهم لا يقومون

بتنظيف عيونهم الا نادراً ، هـذا من ناحية الأهلين . وأما من ناحية الحكومة ، فإن الواحات جميعاً قد حُرمت رعاية الحكومة إلا الواحات البحرية ، فإنها لم تنل غير عطف المغفور له الأمير عمر طوسون باشا فقد كان كثير الحدب عليهم ، والرأفة بهم ، فكم قام بالرحلات على نفقته الخاصة ، لكي يوزع عليهم الهدايا والصدقات . ولقد أهدى اليهم أكثر من دولاب لحفر العيون ، وأمر استعمال هذه الآلات بشكل ظاهر . ولقد فقد أهل الواحات البحرية بفقد سموه أكبر نصير لهم عطوف عليهم !.

والمنتظر أن تنتقل ماكينات الحفر الى الواحات البحرية بعد الانتهاء من الداخلة والخارجة.

وأغلب العيون الموجودة بالواحات البحرية تنبع من سفوح الجبال ، وينحصر ماء العين في قنوات تسير تحت الارض بانحدار قليل نحو الوديان التي تزرع عليها ، ولقد جعلت عليها — على القنوات — فتحات عمودية . على مسافات قصيرة . كمنافذ لتسهيل تنظيفها في أقبيتها والمحافظة عليها والعناية بها .. وهذه الفتحات مستطيلة ، منحوتة في الصخر ، ولها درجات منقورة في كل ناحية ليسهل النزول اليها وقت اللزوم .. !!

ولقد صُنعت هذه الأقبية في العهد الروماني ، وحالتها الراهنة تدل على أن الذي صنعها خبير ماهر ذو دراية كبيرة ، فإنها لا تزال جيدة رغم ما مرَّ بها من صروف الزمان .

ويخرج الماء من أقبيته ، الى قنوات مكشوفة ، تنحدر الى المزارع الواقعة في السهول الفسيحة المنبسطة ، وتقع معظم هـذه العيون ذات الأقبية بجوار القرى ، حيث المرتفعات المجاورة للسهول فينساب الماء منها الى الأرض دون استخدام الآلات والدواليب .. !!

ويبلغ مجموع العيون بالواحات البحرية ٢٠٤ عيناً موزعة كالآتي :

٣٢ عيناً بالبويطي و ٥٩ عيناً بالقصر و ٧١ عيناً في منديشة و ٤٢ عيناً بالزبو . والماء المنصرف من هذه العيون جميعاً يستعمل في الري ولا يعرف مقدار ما تنتجه كل عين ، وذلك لأنه لم يعمل له حساب حتى الآن ، والعيون جميعها عذبة الماء باردته ، اللهم إلا عدد قليل منها يعتبر حار المياه ، ويحتوي ماء أغلب العيون على رواسب مختلفة الألوان .. ومن أهم عيون الواحات البحرية :

١ — عين البشمو[1] : من أجمل العيون بالصحراء الغربية قاطبة ، إذ تنفجر من فجوة في باطن الصخر ، ومن أمامها يبدو واديها المخضوضر في روعته فاتناً كل الفتنة . ويسير ماؤها في المجرى الذي شقه لنفسه على مر العصور ، تحت سطح الأرض في الطبقة الصخرية التي تغطي العين ، ثم يخرج الى سطح الأرض من فتحتين منفصلتين متجاورتين تسمى إحداها

(١) وقع خطأ في العبارة المكتوبة تحت صورة عين البشمو اذ كتبت عين الحجر ، وفي الواحات الغربية بدلا من البحرية .

« البشمو » والأخرى « دودير » . وإحدى الفتحتين ذات ماء حار إذ تبلغ درجة حرارتها ٣٣ْ سنتجراد . . وأما الأخرى فبارد ماؤها كثيراً عن الآخر

والمياه التي تخرج من الفتحتين تتجمع في بعد أمتار قليلة من فتحتي الخروج وتكون غديراً واحداً يسير مسافة ١٥ متراً ثم ينحدر في شلال صغير قوي استغله الأهالي في ادارة طاحونة لطحن الغلال . ثم يسير الماء في مجراه بعد هذا الشلال الصغير الى حيث يتفرع في قنوات أربع ، تقوم على أول كل منها فتحة منقورة في ساق شجرة من أشجار السنط أو الخرنوب ، وتسمى كل فتحة (فكرة) وذلك لأحكام توزيع المياه ، ولكل ذلك اسم يعرف به . . وهي :

١ — فك النقطة : ويأخذ خمس ماء العين ، ويستعمل لري الحدائق ، والباقي يوزع بين الاربعة الأخرى .

٢ — فك القصراوية : ويأخذ ربع المياه الباقية بعد ما يأخذه فك النقطة . .

٣ — فك الضب : ويأخذ ربع المياه أيضاً ويجري في مجرى يسمى باسمه

٤ — فك الأبوار : ويأخذ الباقي ويجري في مجرى يسمى باسمه

ويستعمل ري هذه الجداول الثلاثة الأخيرة في ري زراعات الأرز

٢ — عين المونتلا : وتقع على مسيرة كيلومترين تقريباً من الشمال الغربي لآخر مساكن قرية القصر . ويمتاز المكان الذي يخرج منه ماء هذه العين بمزايا هامة جداً ، فالماء يخرج الى المجرى المكشوف بثلاث فتحات مختلفة ، ولكل من هذه الفروع مميزات من الطرافة بمكان . فالفرع الأول يمر في قبو صخري في الجهة الشمالية ، وفتحته وجوانبه الصخرية مغطاة بنباتات شعري ، بأنم جميل المنظر . . وفي نقطة أخرى يمر ماء الفرع الثاني ، بين شقوق في الصخر ، ويصب في حوض صغير ، هو نفسه مكان نبع الفرع الثالث . . وهذا الحوض الصغير المستدير الشكل يبلغ قطره من ٥ — ٦ أمتار تقريباً ، ويخرج الماء منه على هيئة نافورة ويصعد منها متقطعاً ، فتصعد كمية من الماء ، وتعقبها كمية من الرمل ، فأخرى من الماء ورابعة من الرمل ، وهكذا على التوالي . . !!

وتتجمع مياه هذه الفروع الثلاثة في بركة صغيرة تسمى « الحبس » يخرج منها غدير متعرج يسير إلى مسافة بضع عشرات من الأمتار ، ثم ينقسم الى ثمرات تتحدر مياهها بشلالات منفصلة في ثلاث جهات مختلفة ، وتنصرف الى أكثر من مائة حديقة ، لا تزيد مساحة الحديقة منها عن فدان تقريباً . . ويلوح أن هاتين العينين من العيون الطبيعية التي لم تعمل في حفرها يد إنسان . . !!

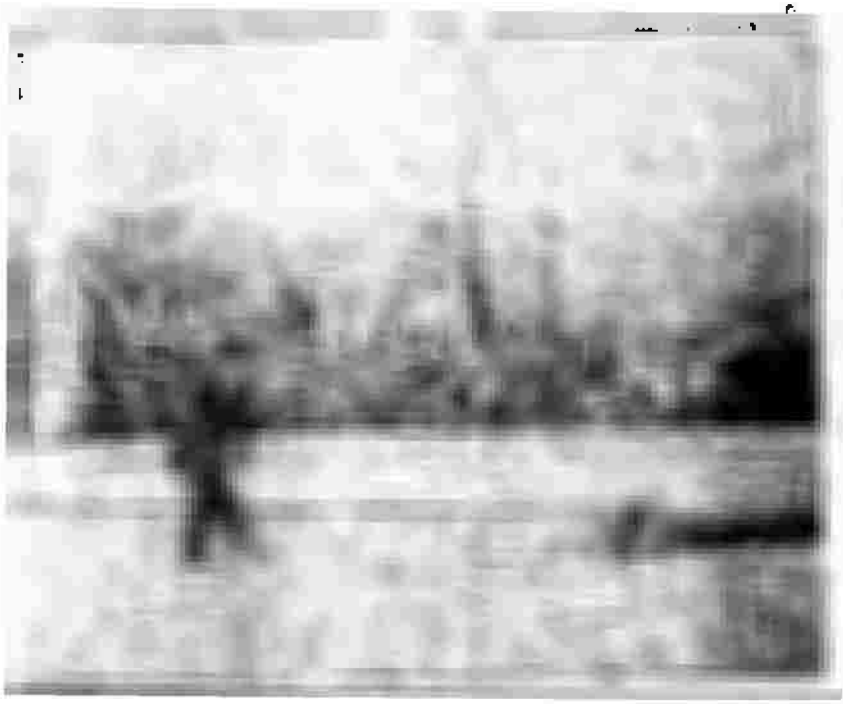

عين طموس وهي أصغر عيون سيوه وعلى حافتها جلس المؤلف وبجوار سور العين جذوع النخيل ملقاة على الارض

عين الشجر وهي أكبر عيون الواحات الغربية وتمتاز بأن مياهها باردة في قناة وساخنة في قناة أخرى ، وكلا الاثنين من منبع واحد

وعداها توجد عيون أخرى كثيرة ذات منظر جميل يلذ للعين أن تستمتع بما له من روعة وجلال ..

ويوزع الماء بين الأهلين بحساب الطرف .. والطرف اثنى عشر ساعة ، ونصفه وثلثه وربعه .. ولا يعرفون حساباً لذاه غير ذلك .. والبيع للملكيات على أساس الطرف المائي أو أجزائه .. !!

وأهل الزبو يحسدون أهل القرى الأخرى بالواحات البحرية على كثرة ماء عيونهم ذلك لأن العيون التي يملكها أهل الزبو قليلة الماء بسبب عمر الخرود لها .. وأكثر حقدهم على أهل الباويطي والقصر ، لأنهم يتمتعون بعين البشمو العظيمة ، الكثيرة الماء ، وهذا الحسد قديم ، ولقد قام من جرائه كبير بالزبو ، وكان صاحب نفوذ وقوة ، وحفر ترعة كبيرة من الزبو ، وسار بها نحو عين البشمو لكي يحول ماءها لقريته عنوة واغتصاباً .. وكان أن قام أهل القصر والباويطي يدافعون عن مائهم ويذودون عن حوضهم ، واشتبك معهم أهل الزبو بزعامة كبيرهم في عراك قتل فيه كثيرون ومن بينهم صاحب الفكرة .. ولا تزال آثار ذلك المجرى يلم بها السارى في بعض الطريق بين الباويطي والزبو

(و) واحة الفرافرة

ليس في واحة الفرافرة ما يمكن أن يكتب عنه غير أنها قليلة السكان ولا تتعدى قرية واحدة ، وعيونها لا تزيد عن العشرين عيناً ، تجري بماء يستعمل جميعه في الزراعة ، ولا يترك منه أي مقدار لكي يذهب هباء ، وأغلب هذه العيون تقع حول « قصر الفرافرة » وهي القرية الوحيدة بالواحة ، ولا يختلف توزيع الماء فيها عما يتبع في الواحات البحرية في هذا السبيل .

وعلى بعد خمسين كيلومتراً في الشمال الغربي لقصر الفرافرة ، تقع عين « الداله » في المنخفض المسمى باسمها وتوجد هذه العين في السهل على ارتفاع ١٢٠ متراً من سطح البحر ولكن هذا السهل المرتفع يعتبر منخفضاً بالقياس الى الجبال المحيطة به ، وتوجد العين في قمة تل من الرمال مكون من ثلاث طبقات ، يبلغ ارتفاع الطبقة الأولى منه مترا عن سطح السهل الواقع في الجهة البحرية ، وترتفع الثانية ثلاثة أمتار فوق الطبقة الأولى ، وترتفع الثالثة خمسة أمتار فوق الثانية .

والماء محاطٌ بشجيرات الغاب والنبع ينخفض بمترين عن قمة الجبل الذي يكوّن هيه قمم

حوله ويمنعه من السيلان في غير مجراه . . وهذا الماء من حيث صلاحيته للشرب يعتبر من أجود مياه صحراء ليبيا .

وتوجد عدا ذلك ينابيع كثيرة في الصحراء . ولكنها لا تستعمل للزراعة ، ولكن للشرب . ذلك لأنها تقع في بقاع غير مأهولة بالسكان . غير أنها تؤدي خدمة جليلة للقوافل لوقوعها على دروبها التي تسلكها ، فتتزود منها أثناء السفر الطويل الشاق الذي تمتي به في الصحراء القاحلة .. ولما كانت هذه الينابيع ليست لها قيمة من الناحية الاقتصادية فقد رأينا ألا نطيل الحديث عنها خصوصاً وأنها لا تختلف كثيراً عما ذكر من الآبار .

وكل الماء الذي في الصحراء تقريباً يصلح للزراعة ، ولكن ليس جميعه يصلح للشرب ؛ ذلك لأن هناك عيون تزيد نسبة المواد الراسبة في مائها عن ١٠٠٠ جزء في المليون .. وهذه النسبة من الرواسب هي أقصى كمية يُسمح بها في ماء الشرب .. ومثل ذلك كل عيون سيوه وقارة أم الصغير . ولكن الأهلين يشربونه في غير امتعاض لتعودهم عليه فقد درجوا على شربه .. أما نحن أبناء وادي النيل ، فعندما يذهب الواحد منا إلى احدى هاتين الواحتين فإنه يمضي أياماً قبل أن يستسيغ الماء . وليس في الشرب فقط عدم الاستساغة بل وفي الشاي والقهوة ، وكل ما يصنع به . وما هي إلا أيام ويحتوده كما تعوده أبناء الواحة من قديم الزمان !!

وتعتبر واحة قارة أم الصغير ، أكثر بقاع الواحات ملوحة للماء إذ يبلغ مقدار الرواسب في الماء ٦٠٠٠ جزء في المليون ويصل في بعض العيون إلى ٩٠٠٠ جزء في المليون .. وبينما نجد أقل نسبة للرواسب في ماء عيون قارة أم الصغير ٣٧٩٠ جزء في المليون وفي سيوه ١١٩٠ جزء في المليون .. نجد أن أكبر نسبة في الواحات الأخرى ، لم تتعد الألف جزء في كل مليون .. هذا إذا استثنينا عين قائم في الفرافرة ، وعين العميلي والشفرة في البحرية ؛ وخمس عيون في الداخلة أكثرها في القلمون .. وسبعاً في الخارجة أكثرها في بولاق .. بينما عين دنسية وعين الواطية لا تصلحان للشرب اطلاقاً لاحتواء مائهما على مواد جصية وحديدية كثيرة .

١ = إلى الصحراء

..وتركنا القاهرة والشمس الغاربة ترسل أشعة هزيلة،تنعكس على زجاج نوافذ القصور، فتحدث وهجاً أحمر كأنه اللهب المتقد ، تمتد ألسنته من أتون متأجج . وأخذت السيارة تطوي الطريق نحو الأهرامات ، والهواء البارد يتدفق على جانبيها ، ثم التوت بنا منسابة وسط الصحراء ، مندفعة كالماء ينحدر من شلال ، والشمس تبتعد شيئاً فشيئاً ، حتى توارت بين أستار الشفق ، ولم تزل بقية من دمها الدامي تخضب الأفق ، وتنعكس على الرمال، والأحجار الناجية على جانبي الطريق .. !!

وأقبلت بواكير الليل تسترق الخطى كالكتائب ، وأخذت صفوف الظلام تمتد فوق ربوع الكون . ولا زلنا نطوي الأرض ، ولا بصيص لنور يضطرب وسط هذه اللانهاية ، إلا ما يقع من مصباحي السيارة الأماميين ، تشقان الظلمة من أمامها ، وهي تعلو وتهبط غير مبالية بوعورة الطريق ، وحلوكة الليل .

وكنت جد طروب بهذا كله ، إذ أرى فيه صوراً ما كنت على علم بشيء منها من قبل ، وفجأة لمحنا نوراً يلوح في الأفق البعيد ، ما لبث أن اختفى ، وما هي إلا لحظة حتى أقبلت سيارة تشق الفضاء ،وكأنها الأمل البارق ، وخلفتنا — ذاهبة الى القاهرة — كفرصة تتراءى لليائس في ظلام الحياة ، ثم تفلت منه قبلما يتمكن من إدراكها .. !

وتقدمنا في الطريق أميالاً ، فلاح لنا ضوء جديد مكدنا نتساءل عنه في أنفسنا حتى أدركناه ، وكانت محطة اللاسلكي الواقعة في الثلث الأول من الطريق الصحراوي ، وما هي إلا لحظة حتى خلفناها وراءنا . وانطلقنا لا نرى شيئاً إلا ما يقع تحت مصباحي السيارة . . ثم لاحت لنا أضواء ومصابيح كهربائية ، وأعدنا الكرة في التساؤل ، فاذا بنا نقف أمام ما كنا نريد الاستفسار عنه ، وكانت نقطة « هجانة » ترابط في وسط الطريق ، ومقهى ونزل ومطعم ، وبجانب هذا كله يمتد طريق شركة وادي النطرون

وواصلنا السير حتى اذا ما قطعنا بضعة كيلو مترات ، وقفت بنا السيارة فجأة ، فقد

أصاب العطب إحدى عجلاتها الخلفية ، وفي هذا الظلام الدامس ، وهذا السكون الشامل الذي يُذكر من زار آثار الفراعين بسكون مقابر طيبة . . أخذنا في إصلاحها . .

كان الهواء بارداً ولا شيء من حولنا يتحرك إلاّ يدي السائق تعملان في إصلاح العجلة التالفة . وفجأة ومض فوق رؤوسنا ضوء وسمعنا حركة تدنو ، فأرسلت بصري في هذه الحلكة الفاحمة . مستكشفاً هذا النور الجديد . فإذا به من سيارة مقبلة من القاهرة ما لبثت أن اختفت في منخفض من المنخفضات التي ينحدر إليها الطريق ؛ ثم رحت أحدق في الظلام ثانية علّني أعرف مبعث هذه الحركة التي تدنو . فإذا بها قافلة من الإبل تجتاز الطريق الصحراوي . مقبلة من وادي النطرون ، وبعد دقائق اقتربت منا السيارة ، وكأنها الجن المواتي ، فغمرتنا بنورها ، وكنت أقدّر في نفسي أن من بها سيتقدمون بنا فيتساءلون : هل من معونة ؟؟ إلاّ أنني رأيتها وقد ضاعفت سرعتها عند ما اقتربت منا ، ومرت كومض البرق مسرعة !!

وبعد هنيهة كان السائق قد انتهى من عمله ، وتحركت مركبتنا ، وشعرت أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن صدري ، فقد أخذت سرعتها تتزايد ، وتتضاعف فإذا بالتي مرت بنا ساخرة ، تتخاذل في سيرها ، ثم إذا بنا نثأر لأنفسنا ، فنمر بجانبها دون أن نعبأ بها ، ثم تمادينا في السير ، دون مهادنة في السرعة ، كأننا نجري بقوة سحرية إلى فضاء مجهول وبغتة التوى الطريق فألقت السيارة بنورها على أرض بجواره ، فلاحت لنا خضرة كاسية وكان السائق الماهر ملمّاً بكل شيء حول الطريق الذي نجتازه ، فسألته : ما هذه الخضرة التي تكسو رمال الصحراء ؟ فأجاب : إنها حقول الشعير التي يزرعها البدو على مياه الأمطار . ولقد كنا في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر وكانت الأمطار قد هطلت بغزارة في اليوم السادس من نوفمبر ، فتكونت عنها سيول غمرت الأرض وقتاً ليس بالقصير ، فهذا إذن منبتها .

ورحت أحدق في الظلام علني أرى جمال هذه المزارع النامية في البيداء ، ولكن عبثاً حاولت . فالحلكة الفاحمة حالت دون بصري وما يريد أن يستكشف ، وبينما أرجع البصر محاولاً اختراق سجونها ، إذ تراءى لي قنديل يضطرب وسط لاحابيتها الدامسة . ولم تمض برهة حتى كنا نمر أمام مقر هذا القنديل ، فإذا به في خيمة أعراب ممن يقطنون وسط مزارع الشعير ، ولم أتساءل عنه قبل بلوغه ، فقد رأيت أن من الصواب ألاّ أشغل السائق بكثرة الأسئلة ، فلا يضطرب ذهنه الذي ينحصر في عجلة القيادة . وبالصبر سأرى بنفسي وأقف على كل شيء .

وبعد ساعة تقريباً بدت لنا شعلة من النور في الأفق البعيد ، كأنما جهنم تتقد بأجساد

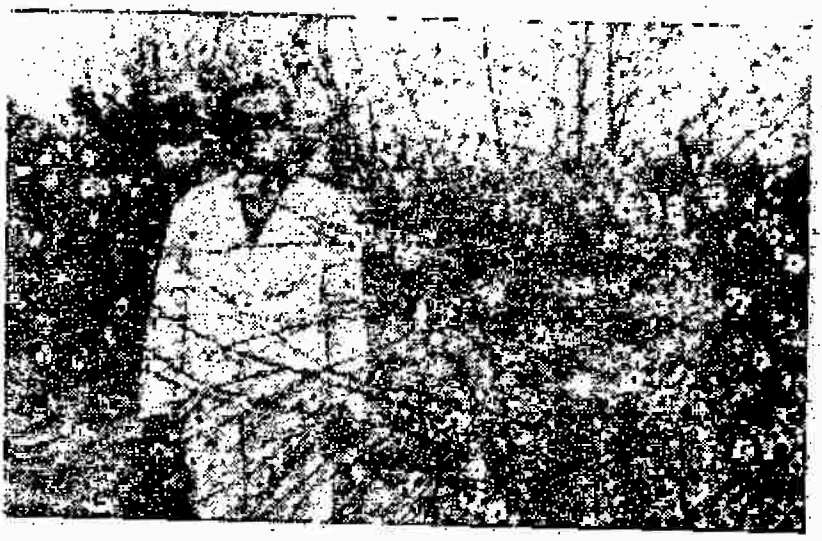

الربيع في بروط (شجر اللوز المزهر)

فتيات البدو في الواحات البحرية

الثالمين . فقد كانت عظيمة المساحة حتى اني نسيت بأزائها ما عاهدت تقسو عليه من الصمت فسألت السائق : ما هذه الأضواء الجمة ؟ فقال : انها العامرية . وسرعان ما استدرك عند ما مررنا بين ثكنات الجيش الانجليزي القديمة فقال : بل هي الاسكندرية .

عروس الماء ، وقادة الصحراء ، تبعث النور في عرض البحر الزاخر فيهتدي به كل فلك ماخر ، يلاطم عبابه ، ويعلو فوق قبابه . وترسل بأشعتها فوق البيداء القفر فيسترشد بها كل من ضلّ في المسلك الوعر .

وبعد برهة ، وأمام الممر المؤدي الى العامرية ، تركنا الطريق الصحراوي الممهد والتوت بنا السيارة بين مزارع الشعير ، في طريق غير معبد ، الا أنه كمشاة وسط يمتاز أنيق تحف به المروج الخضر من الجانبين ، والقناديل متناثرة هنا وهناك ، تخفق في بيوت الأعراب ، وعلى ضوء السيارة رقصت الأرانب الجبلية التي انبثت وسط المزارع ترعى الكلأ متخذة من ظلامة الليل حجاباً يسترها عن العيون والأبصار . واسترعت بصري شجيرات وسط الشعير أكبر من صويحباتها ، فادركت أنها ليست كلها من صنف واحد ، الا أنني لا استطيع أن أميزها ، لعمق الليل وكثافة الدجى ، وسرعة السيارة ، ولكنها كفتني مؤونة التحقيق والتدقيق ، فقد ميزت نفسها بنفسها ، إذ بدت منها نباتات تحمل أعواداً وهذه الاعواد تحمل أزهاراً فأوقفنا السيارة ، واقتطف السائق حاملاً زهرتها ما على جانبي الطريق .. يا عجباً يا عجباً .

انّ ما بيدي إن هو الا عود من أعواد النرجس ، عليه أزهاره العاطرة ، فيالها من طبيعة قادرة ، كست نفسها بنفسها ثوباً بدت فيه رائعة الجلال ، فها هو ذا النرجس الجبلي ، يزاحم الشعير ، في منبته ، وها هم أولاء الأعراب ينعمون بجمال كسا الله به القفر فصار روضاً يانعاً .!! وان الانسان ليجهد نفسه في زراعة هذه الابصال ، وتربيتها في البساتين والحدائق ، ويروح يفخر إذا ما أنبتت نباتاً له من الحسن نصيب ، ولو تجول في ربوع الصحراء الجرداء صيفاً ، الغناء العامرة شتاء لاستمتع بالجمال الالهي الذي يفني نفسه في تقليده : فتلك هي الابصال نامية في العراء ، سقاها المطر وبستانها الطبيعة .. !!

ولم أفق من عجبي إلا على أثر انبعاث أضواء كثيرة خلابة ، وكان السائق على علم بأنني لم أشق هذه الطريق من قبل : فقال دون أن أسأله : وهذه بلدة « كنج مريوط » .. وبها فنادق فخمة للسواح وأصحابها أجانب وهي مصيف جميل يحبه الانجليز ..

وخلفنا « كنج مريوط » وراءنا ، ولم نبصر بأحد في طريقنا ، إلا حشد ما مررنا بمحطة السكة الحديدية ، فقد وقف بجانبها ، عند ما اقتربنا منها ، بضعة رجال من الأعراب مسرعين

نور المدينة ، فجاءوا يتلمسون في الظلام ، ليقبسوا في نفوسهم شيئاً مما يشهدون .

وبعد بضعة كيلومترات رحنا نخوض في ماء يغمر الطريق هو من آثار السيول التي غمرت هذه البقاع والساحل الشمالي في يوم ٦ نوفمبر الماضي [1] . وعند الساعة التاسعة مساء دخلنا قرية « برج العرب » .. !!

ولم يكن بها من صوت ولا حركة ، تدل على وجود الحياة فيها ، فقد كانت هادئة ساكنة كأنها من العدم بحيث لا ينم عنها شيء وسط سرمدي الظلام ، حتى ولا قنديل يختلج في بيت من تلك البيوت التي يلفها الليل بثوب أدكن .. وأخذنا نطرق باب الدار التي انتوينا قضاء الليل فيها ، ولكن دون جدوى ، تخيل إلينا أن من بها من صحب ، قد غادروها إلى مكان آخر يقضون فيه سهراتهم الليلية ، ثم لا يلبثون أن يعودوا . ولكن ما أدهشنا إلا ونافذة تفتح في تباطؤ ، ومن خلفها صوت يقول في تبلد ، ولا تزال به لكنة النعاس : من الطارق .. ؟؟

فقلت مازحاً : أفّاق ضل الطريق في هذه الأمسية الدامسة ، فهل من مكان يقيه شر قارس البرد ، وعوادي الظلام ؟ ؟ فإذا بصاحب الصوت يقول : ما تعودنا أن نأوي الضالين في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ، فاذهب وابحث لك عن مأوى غير هذا ..

وهنا عرفت أنه قد تعرّف عليّ من صوتي ، فقد كان صديقي وزميلي ، وكنا ابني بلد واحد .. وأسرج المصباح وفتح الباب .. فسألته أكنت نائماً في هذه الساعة المبكرة ؟؟

فقال : وفيم أنفق الليل هنا ان لم يكن في النعاس .. ؟ ؟

وظللنا في سمر حتى انقضى وقت كبير من الليل ، غنا بعده كتوأمين يظلهما ذراع أم رؤوم .. !!

---

(١) نوفمبر سنة ١٩٣٨

٢ ـ أحلام الصحراء

. . . وأصبحنا فإذا القرية قد صورها « الميجر براملي بك » على ربوة من حجر أحمر ، وعلى طراز المغرب الإفريقي وبها عدة أبراج عالية ، ولها بوابتان كبيرتان من بينهما يمر الطريق القديم الممتد بين الاسكندرية ومرسى مطروح . ولقد كانت مقرًّا لمحافظة الغرب قبل مدينة مرسى مطروح خلال العصر الحالي . .

وغادرناها الى بلدة الحمام التي تبعد عنها سبعة عشر كيلومتراً غرباً وفي طريقنا اليها مررنا « بالغربانيات » . .

وليست الغربانيات بالمدينة : أو البلدة ، وإنما هي محطة للسكة الحديد يقوم بجوارها مصنع « أنجيس » يمتلكه رجل يوناني ، وعلى مقربة منها نحو الشرق يقوم قصر منيف على ربوة وسط الصحراء الساكنة وكأنه المعبد في جلاله ورهبته ومن حوله حديقة . .

أما القصر فرائع حقًّا يبعث في النفس الجلال وقد كساه صمت الصحراء الأبدي فتنة وروعة ، فإنه ليبدو كالزاهد الذي فرّ من طغيان المدنية وفجورها واتخذ بدينه مكاناً قصيًّا . . وأما الحديقة فما أجمل تنسيقها ، وقد أنشأت ساحة القصر الأجنبية في زاوية من زواياها حوضاً للساحة وجميلة بديعة ، وقد قيل ولست أدري أحقيقة هذا أم إنه فرية مما تعوّد أن يهرف به الأعراب . . قيل إنها أنشأت هذا كله ، لكي يكون خلوة لها ولمن تحب . . ؟!

وبعد ما طفنا بهذا كله ، عدنا إلى الطريق مواصلين السير الى الحمام ، فإذا بها بلدة قاصرة لا بأس بها ، فيها سوق ومقاهٍ ومحطة للسكة الحديد ومركز للبوليس وتفتيش للصحة . .

وغادرناها لنسير في طريق يعتدل ويستقيم تارة ، ويلتوي تارة أخرى ، وطوراً يعلو مرتقياً هضبة أو تلاً ، وينخفض إلى قاع وادٍ فسيح طوراً آخر ، حيث تغطيه مياه الأمطار ، وفي أماكن كثيرة حفر لها الأعراب حفراً بجوار الطريق كي تتجمع فيها فتبقى صالحة نظيفة منها يشربون ويسقون الماشية ، وها هم أولاء فتيان الأعراب وفتياتهم يرعون الأغنام بين شجيرات الرجس التي تشغل مساحات واسعة من الصحراء . وإنهم ليقفون تحت الأشعة المتساقطة ، تُرسلها الشمس على أجسادهم ، فتغسلها بجوارتها المستحبة ، في مثل هذا الصباح

الشهيم المراه ، وكأني بهم سعداء في مثل هذه الحياة الهادئة ، التي رسمتها يد الطبيعة الخنون ، بريشة فذة ضربت في الفن بسهم وافر من قديم الزمان ، ولم لا يكونون سعداء حقاً والغيث هطل بغزارة هذا العام ، وها هي ذي الارض قد أنبتت الحب الذي بذروه ، ولا يزال البعض منهم يحرث بذره . على ناقة أو جمل ، ويأمل أن يصيب من ورائه اليسر والرغد . .

ولقد ذكرني مرأى الفتى البدوي والفتاة الاعرابيـة ، من وراء الأغنام المثبتة وسط المرج الأخضر ، بقول شوقي على لسان ابن الملوح :

أخذنا وأعطينـا إذ البهم ترتعي   وإذا نحن خلف البهم مستتران . . . !

ألا ما أجمله من بيت يرسم حياة الحب في البادية ، وما يحوطها من مناظر خلابة جميلة إن الذي يتمثل هذا المنظر الطبيعي أو يراه ، يجد أن الطبيعة التي ينشأ بينها البدوي ، هي الدافع الأول للقلب ، لان يعشق وأن يحب . . فها هي ذي الأغنام ترعى الـكلأ . وها هي ذي العيون تستجلي جمال الطبيعة الآلهي . إذن فلابد للقلب من شاغل يملأ عليه فراغه ، ويعمر حوله هذا الفضاء الواسع الشاسع . ويجعله في حياة صاخبة وسط هذا السكون . .

لابدّ للقلب من أمل يداعبه فيحيا من أجله ، ويخفق عند ذكراه ، ويطلي رمال الصحراء الصفراء بطلاء ساحر يحببها إليه ، ويقدمها عنده ، وليس أقدر من الحب على ذلك . فإنه لعالم روحي يحيل القفر جنة ، ويجعـل من الفضاء الواسع والسكون الشامل ، عالماً آخر ملؤه الأماني والاحلام .

ألا ما أمتعها من ساعة ، تلك التي يجلس فيها الفتى البدوي ، يبث نجواه الى ليلاه . التي تلقى نظرته الساذجة المغرمة . ببسمة بريئة ساحرة ، هي من فيض القلب الطاهر ، الذي يخفق بين أضلاعها . وترجمان شعورها النقي ، الذي لم تشبه عوامل الخداع المادي ، والمكر الخاتي مما أدخلته المدنية على نفوس الفتيات المتحضرات من خسة وخبث . !!

إنها إن أحبته . فحبها ليس إلا .. لا تجتذبها نحوه عوامل الجاه ، والأبهة الفارغة والمال الوفير . أو منصبه الكبير . فعملها في الحياة واحد ، وهو رعي الأغنام . وطعامهما واحد وهو حليب الشاة وخبز الشعير ، وإن أصابا شيئاً عدا ذلك فيكونا من الرفاهية بمكان . والحب.. الحب وحده غذاء روحيهما الذي على نوره يعيشان ويستمرآن قفر الصحراء . . !

إنك لو أجلت النظر في تلك البقاع المترامية الأطراف ، اللانهائيـة المساحة ، لرأيت بيوتهم التي يصنعونها من صوف الأغنام ، وليس فيها من شيء يدل على الرفاهية ، أو نعمة

بدوية حمناء من مربوط

العيش ، إلا أن قناعة نفوسهم ، وسعادتهم الروحية ، تجعلها جنة قطوفها دانية ، فيها يطوف عليهم ولدان مخلدون إن رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً .. فيها يخلدون . وتنقضي الحياة سالمة ما دام الضرع سليماً . والمطر غزيراً .. !!

فالحب في الصحراء قُدُسٌ مشاع ، إذا ما حلّ سلطانه داراً ، وجد تسامحاً وحدباً ، فليس من أبناء الصحراء ، من يقيم في سبيله السدود والقيود . وإنما يتركون القلوب تهيم في جناته ، مفتشة عن سعادتها ، والأرواح سابحة في سمائه ، باحثة عن غذائها ، كما تعوّدوا أن يتركوا الشياه في الأرض ، تسعى وراء الكلأ .. !!

فالمرعى المعشوشب بربيع الساعة .. والحب سواء أكان صاحبه سعيداً به .. أو بائساً منه ، فهو ربيع قلبه على أي حال .. وليس هناك أية قوة تستطيع أن تمنع أحداً من أن يحيا وقتاً في الربيع .. ما وجد اليه السبيل .. !!

فالوالد يحترم أحزان فتاته ، وينزل عن إرادتها ، ولا يعارض فتاه ، في هواه ، فلقد درجوا جميعاً على الحرية الموروثة في دمائهم ، والتي تناقلوها أجيالاً بعد أجيال ، فلهم في الحياة متاع الى يوم يقبضون ..

وكل بدوي من هؤلاء ، يشفق على العشاق ، ويرثي لحالهم ، فلا يذكر أحد محبّاً بسوء ، أو يحسّ دني ، وليس بينهم من يضني نفسه ، فيكلمها عناء التجسس على فتىً وفتاة اختلسا من يد الزمان برهة . فيها ينعمان ببقيا الهوى ، إلاّ إذا كان غريماً مزاحماً . أكلت الغيرة قلبه . قتله العشق ، وتيمهُ الهوى . وأضناه الجوى ، فأصبح لا يملك من نفسه زمامها . !!

والجميع من رجال ونساء . يستشعرون ما في رنة الغناء ، من نغمة الحب . ويستطيعون بما جبلوا عليه من فراسة فطرية ، أن يعرفوا المتغني ومن يغني .. !

والفتاة البدوية لا ترغب في الانفراد في سيرها أو مجلسها . إلاّ إذا أحبت .. فإنها لتخرج الى الفلوات ، وحيدة فريدة ، فتترنم بأنشودة من صوغ فكرها ، وهتاف قلبها ، فتذكر أصداها في هواها . وتردد في لوعة ما بنفسها من جزع وشجن ، وتبدأ هادئة حتى إذا ما احتدم في صدرها الألم ، علا الصوت بأنغامه في ترجيع موجع ، فلعلها تُسمِعُ من تحب .

فالغناء إذن هو الوسيلة الوحيدة للتراسل ، بين العاشقين من هؤلاء البدو .. فإن الصوت ليخرج دامياً من شفاه الجريح العاني منصبّاً في نفس من يعني بشدوه فلا يلبث أن يجيب وإذا ما سمع البدوي صوتاً مشجياً ، ينحدر مع الهواء الى سمعه ، وفيه رنة أسى ،

أرهف السمع ، وأعمل الفكر . فلا يلبث طويلاً حتى يعرف صاحب الصوت ومن يعنيه في ترديده وشدوه .

وانني لأذكر أن فتاة بدوية رقيقة الحال أحبت فتىً عظيماً من فتيان العرب ، وبادلها الفتى حبّاً بحب ، وأقام على حبها حيناً من الدهر ، ثم مال عنها ، فخرجت ذات يوم لتحتطب ، على مقربةٍ من سوق كانت عامرة ، ورغبت إليها نفسُها أن تُنَفِّسَ عنها ، فراحت تردد في أسىً وحسرة :

تعادلْ معاي زمان ومال عزيزْ عليّ طاوْد العربْ (١)

وما كاد الصوت يسري مع الهواء الى من بالسوق ، حتى انتبهوا . فقد جاءهم بحلاوة وطلاوة ، نفسه روح تسبح ، وقلب يضطرب ، وأنفاس أحرقتها لوعة الوجد . وآلام الصد والحرمان .

وقضوا برهة وكأن على رؤوسهم الطير ، فكلهم آذان تصغى ، يتعرفون الصوت فيما بينهم حتى إذا ما انتهت من أغنيتها ، عرفوا من هي ، ومن هو المعني منها ، ذو الحظوة لديها ، وكان صاحبها في السوق ، ولقد سمع مع من سمع ، فما كان منه إلاّ أن سار الى أهلها عند المساء ، في نفر من صحبه ، وخطبها لنفسه .. !!

من هـذا نحس مافي نفس رجال العرب من إكبار للحب ، وحدب على صرعاه ، ورحمة بهم ، أما النساء فإنهنّ يحترمنَ الدموع ، إذا ماذرفها رجل ، ويقدرنَ بكاء الرجال ، فيهبنهم العطف . وإن كنّ عنهم راغبات ، فليس من شيءٍ يتملك قلب الفتاة كأن تجد فتى يبكي بين يديها لوعة وحبّا . !!

ولقد أعرف صديقاً لي ، كان كثيراً ما يختلف الى مربوط ، مرتاداً أسواقهـا في طلب الأغنام ، للاتجار بهـا ، وكان يحرص دائماً على أن لا يفلت منـه سوق « بهيج » لا لأنه يفضـل الأسواق الأخرى في شيء ، بل لأن فتاة تأتي إليه ، ومعها نفر من خدمها والتابعين ، لتبيع ما هم في غنى عنه ، وتبتاع ما هم في حاجة إليه ، وكانت مدللة عند أبيها ، عزيزة عليه .. أبوها الذي يتمتع بمشيخة قبيلته ، واحـترام جيرانه العرب .. وكانت ذات جمال وافر وفتنة .. !!

أحبها صاحبي دون قصد ، وأغرم بها على رغمه . ولمـا أن أحبها الحب كله ، تهيبها فلم

---

(١) تعادل : توازن أي وضع نفسه في مستواي ، زمان : حينه من الدهر . مال : انصرف .. عزيز علي : عزيز عندي ، طاوه : جدوه من طانه أي أصابه بالعين ...!!

يجرؤ على التحدث إليها ، ولا الاقتراب منها ، وإنما كان يطوف بمجلسها ، وقد افترشت بساطاً من صوف ، كما يطوف الوثني بصنمه ، يتلمس منه البركات .. !!

ولكن المدى طال به ولم يرحمه وتنه ، فلم يباركه ولم يحن عليه ، فاستبدّ به الشجن ، وأضناه الحب ، فراح يشكو أمره وما يلقى من عنت الحب ، الى خلٍّ من أبناء العشيرة ، وثق به وبإخلاصه في صداقته ، فنصحه هذا بأن يخلع نقاب التهيب فيكون جريئاً معها ، لأن الفتاة البدوية لا تحب من الرجال الخجل ، خصوصاً في الحب .. الحب الذي هو شرعة الصحراء التي تهب بها أبناءها السعادة والنعيم ، فيستعينون بهما على إعناتها ، وما فيها من شظف العيش ، وخشونة الحياة .. !!

وكانت « حامة » — وهذا اسمها — تصحب معها كل سوق ديكها الذي ربته .. واعتزت به ، ولم تكن لتفارقه يوماً أو بعض يوم .. وجاء يوم السوق ، وذهب صاحبي كعادته إلى محبته وبيت المطاف ، فرأى « حامة » كعادتها على بساطها الذي كان ينظر إليه فلا يرى فيه غير بساط سليمان ، إذ الدنيا جميعها قد تجمعت فيه ، ما دامت « حامة » متربعة في زاوية من زواياه ، ومن أمامها ديكها يزهو بريشه اللامع ، وبصاحبته الحسناء ، التي لا تمر بها عين دون أن ترنو إليها بتمنٍّ وإعجاب ، وكأنما يفاخر الرجال بأنه هو صفيها ، وليس من بينهم من له عندها أقل شأن .. !

وكان صاحبي حقيقة يضمر في نفسه الحسد لهذا الديك السعيد ، لا لأنه صفيها دونه فحسب .. بل ولأنه يسعد برؤياها كل يوم ، ويطعم من يدها الحب ويظفر منها بكل حُبٍّ .. فما كان منه إلاّ أن تقدم من مجلسها ، واختطف الديك من أمامها ، قائلا لها :

— « بكم هذا يا صبية . ؟؟ »

فزجرت مستنكرة جرأته ، وقالت في صوت فيه موسيقى وفيه حصر :

— « يابن مليك يا فلاّح .. ما هو للبيع .. !! »

فأجاب صاحبي ، وفي لهجته يبدو الوجد ، وفي نبرته تسري اللوعة :

— « ما أنا فلاّح .. ولكن بدوي مثلك يا مليحة .. ! »

وصمت لحظة وعقّب . « تاخذي فيه ريال .. ؟ »

فأجابت وقد لمست في أعطافه حنوًّا عليها ، وحناناً وميلاً إليها : « ما يجي في تسييح دمه »

فقال : « تاخذي فيه جنيه .. ؟ عشر جنيهات .. ؟؟ »

فصمتت وقد أحست ما يرمي اليه ، فألقى اليها بالريال الذي كان في يده ، ومضى والديك

يصيح في قبضته ، فما استطاعت أن تمنعه منه ، أو ترده عنه . !

وسُرّ صاحبه البدوي بما وصل اليه من نتيجة ، وعلم أنها مالت نحوه وعطفت عليه وفهمت ما قصده مما فعل ، وأكبرت فيه هذه الجرأة النادرة بالنسبة اليها ، فما استطاع أحد قبله أن يجرؤ عليها قط فيمس الديك . لذلك تركته يذهب به وهي في شبه ذهول .

وانتهز الصديق البدوي هذه الفرصة ، وراح من ناحيته يعمل على تعزيز مكانته لديها ويطريه بأطيب الذكر . ولقد قال فما قال : إنه بدوي من أصهار خيلانها ، وأنه يعرفها دون أن تعرفه ، فداعبها بهذه الدعابة ، وكان من قبل قد اتفق معه على أن يدعي العروبة ويذكر له خيلانها واحداً واحداً ، مذكراً إياه أن يدّعي النسب اليهم . لأنها إن عرفت أنه فلاح ، وليس ببدوي مثلها ، فلا له في رضائها نصيب .

فما كان من «حمامة» إذ عرفت عنه ما عرفت الا أن مالت الى صاحبه البدوي الذي من أبناء جلدتها أن يدعوه ليشرب الشاي في خيمتهم . !

ولم يسع الصب الوامق إلا أن يقبل دعوة من يحب ويعشق ، وركب معها سابحات حتى وصلا الى النجع الذي فيه تقيم . فاذا دارها خيمة من شعر ، تأنف من دخولها في أول الأمر . ولكنه إذ دخلها وجد فيها الجنة والسحر . !

فمن وسائد حريرية متناسقة الألوان ، الى بسط عجمية بديعة الرسوم ، الى أكواب من فضة ، وغير ذلك من مظاهر اليسر والرخاء .

وجالست الفتاة الضيف ، فقد كان أبوها غائباً عن الدار ، وليس بدعاً في تقاليدهم أن تحيي المرأة الضيف الى أن يحضر رجل البيت . وبذلك جاءت الخلوة تسعى ارتجالاً بين صاحبي وحمامة ، دون تدبير منه أو منها ، فأراد أن يبثها نجواه . فتكلم ولكن العبرات خنقته ، فأمسكته عن الكلام ، فاذا به يبكي على رغم منه .

قالت : أتبكي ؟ وصمّ البكاء ؟

فأجاب : لقد احتدم حبك في قلبي الذي هو صريعه من زمان بعيد ، فلم أجد ما أتنفس به عن فؤادي العميد غير الدموع لعلها تخفف عنه المرجدة . وما يضطرم فيه من حرارة النيران

وراع الفتاة أن ترى الوجد يقذف من عينيه دموعاً ، واللوعة تسيل في عبراته فهدهدت خاطره ، وطيبت نفسه ، ثم منحته وعداً بأنها ستكون له رغم كل الظروف . له هو دون غيره

وجاء أبوها فقدمته اليه بأنه من أصهار خيلانها بفاقوس ، تعرفت عليه في السوق فجاءت به ، فأكرم الأب وفادة ضيف فتاته ، واحتجزه عنده أياماً ثلاثة هي مدة ضيافة العرب . ولقد كان خلال هذه الأيام الثلاث موضع المفاوة والتجلة والاكبار من حمامة

وأبيها . ولقد وصف لي حياته خلال أيامه هذه ، بأنها كانت موشاة بأحلام سحرية ، لاندرة له على وصفها بالنسبة لما أضفته عليها حامة من جلال .

وسافر مزوداً بأطيب الاماني والآمال من يحب ، وأعاد الكرة خاطباً إياها لنفسه ، ولم يمانع والد حامة فيما أرادت هي وفتاها . وذهب صاحبي لأبيه يخبره بجلية أمره ، وليصحبه معه لإتمام الزيجة التي وضعها من أمانيه في القمة . ولكن أباه عارضه أول الأمر . ولما أن وجد منه إصراراً وافقه على ما يريد ويرغب .

وقال صاحبي متمماً القصة : وضرب أبي موعداً يزيد أجله عن شهر ؛ فلم أحتمل الانتظار طوال هذه المدة دون أن أراها . فذهبت الى سوق بربيج لأمتع العين بالنظر الى حامة . وما كدت أراها حتى تداركت دقات قلبي . ولكن الذي راعني هو أني وجدت من حامة ازوراراً عني وصدوفاً وإعراضاً . !!

اضطربت نفسي . ولم أدر ما السبب ، ولكن ذهولي لم يطل به المدى . فقد أسرع الي صاحبي البدوي ، وسار بي قليلاً متنحياً ناحية بعيداً عنها . وأخبرني بأن أبي قد أرسل الى أبيها يخبره بعدم صدق روايتي . وبأني فلاح ، ولا صلة لي بفلان أو فلان ، ممن ادعيت النسب إليهم . وإنه لمن الخير لي ألا أعود الى الظهور أمامها ففي ذلك خطر علي .

وصمت صديقي الحضري لحظة ثم استطرد : وانقطع أملي منها ولم أعد أسعى الى مربوط . لا لأني خفت مغبة ذلك بل لأن حامة احتقرتني اذ كذبت عليها ، وتنصلت من جنسيتي واحتقرت بيئتي في سبيل الوصول إليها . وما أنا بمستطيع احتمال نظرات الاحتقار تصوب منها إلي .

وسكت عن الكلام وقد رفع يده بمنديله ليجفف عبرة تحدرت على خده .

• • •

على أن الفاقة اذا امتدت بقوم أفقدتهم السعادة في كل شيء . فلقد مرت بهؤلاء البدو أعوام ذاقوا خلالها الأمرين . إذ امتنع المطر عن الهطول ، وما كانت الأرض الحب الذي بذروه ، فلم تنبته . وساءت الحال وعم القحط ؛ واضطر الكثيرون الى الرحيل الى وادي النيل أو الى جواره ، بعد ما باعوا جل أغنامهم بأبخس الأثمان ، ولو علمت يا قارئي أن خمسة خراف بيعت بخمسة عشر قرشاً لهالك الأمر ، ولكنه ليس بكثير على من لايجد ما يطعمه أو يطعمه دابته التي ستهلك أمامه ، فيبيت هو وهي على الطوى أياماً ،

ليس بكثير عليه أن يضحي في سبيل الخبز والشاي الذي لا يعدله شيء عندهم مطلقاً. ولقد كان الكثيرون منهم لا يجدون ما يتبلغون به غير فنجان من الشاي بين الحين والحين يحصلون عليها بأي ثمن ومن أي سبيل. وكانت الحكومة تمدهم بالعون بين حين وآخر وظلوا كذلك الى أن أدركتهم رحمة الله في هذا العام (١٩٣٨) فهطلت الأمطار غزيرة حتى أن السيول الناجمة عنها قطعت الطرق والخط الحديدي

• • •

... وها هو ذا البحر يتراءى لنا أثناء السير في أماكن، ويختفي في أماكن أخرى. وإنا لنسير والخط الحديدي مسافة ثم نتركه لنسير بعيداً عنه .. ثم نجاوره ثانية، وانه ليعلو عن مستوى طريقنا طوراً وينخفض عنه أو يساويه طوراً آخر .. وهكذا حتى سيدي عبد الرحمن .. !!

ويحدو بنا أن نقف بإزاء سيدي عبد الرحمن برهة .. فموقعه يبعث العجب في النفس .. فإن قلنا إنه حارس الماء، فلم لا يكون حامي الصحراء .. ؟؟ فانه ليشرف على البادية، كما يطل على اليم، وتزوف له الصحراء أنغام التجلة والإكبار، على أوتار قيثارة الريح، مرسلة إليه الوفود من ذراتها التي يحملها إليه العجاج (١٩) لكي تقدم اليه فروض الطاعة والامان، أو كأنها الحجيج أتى يتلمس اليمن والبركات.

كما يزف اليه البحر آيات الاعزاز والايثار، في أصوات الأمواج التي تتسابق اليه صاخبة مزمجرة. فكلاهما يتملقه، وكلاهما يتزلف اليه .. !!

في هذه النقطة التي تبعد عن الاسكندرية ١٢٧ ك. م. تتقابل اللانهايتان. اليم بمائه والبادية برمالها.

وفي هذه النقطة أيضاً يلتقي الضدان. البحر بزمجرته التي لا تنتهي، والصحراء بصمتها الأبدي الذي لا يفنى.

وفي هذه النقطة يجتمع النقيضان: السيولة والصخب والضجيج. والصلابة والسكون والصمت .. !!

وهكذا جعلهما الله خصمين متجاورين منذ الأبد، إلا أنهما يتفقان في بعض نواحيهما في التيه والغموض والإبهام ..

وقفت بالسيارة برهة استجلي الزرقة الداكنة التي تلوح عند الأفق البعيد، وكأنها جبل أشم أغبر، يخفي ما وراءه من أسرار، وهذه الصفرة الفاقعة التي تستقر في بعض المواقع

بهالة سندسية كأنها العروس تحجب حسنها عن أعين الناظرين لكي تزيده فتنة ورواء ، ومن وراء هذه الخضرة الكاسية يقوم جبل أغبر يستر ما خلفه من طلاسم .. !!

وكأنما لله لسيدي عبد الرحمن أن يقيم في هذه البقعة لكي يشهد — من فوق دمنته التي يقوم عليها — الصراع الدائم بين الضدين ، الماء واليابسة . وأن يرى حملات البحر ، وهجمات جنوده الأمواج على الشاطىء تريد أن تقتحمه فتغمر الأرض من ورائه ، إلا أنها سرعان ما تضعف وترتد مخذولة كسيرة ، فتنجلي عن صخور وأحجار ورمال . تبدو ساخرة منها ضاحكة عليها

ويرى البحر هذه السخرية اللاذعة ، وهذا التهكم الصامت الصارخ — فيثور ويجمع عزمه ، ويحمل حملة أخرى ، وثالثة ورابعة . وهكذا الى أن تنقضي الحياة الدنيا ، ولن يبلغ الثائر من الصامت شيئاً ولن ينال منه مأرباً . !!

مثل طيب لرجل العمل ، ورجل الكلام . هذا الصخر . وذلك الماء . !!

فالماء يزمجر ويهدد ، ويرغي ويزبد . « ويهوش » ثم اذا ما حمل حملة على الصخر . فلا شيء يحدثه غير أنه يتكسر على جوانبه ، ويبرز الصخر بعد ذلك نظيفاً ناصعاً . وقد رجع الماء بكل ما عليه من أتربة وغبار . !!

***

ولسيدي عبد الرحمن مكانة سامية في نفوس أهل الصحراء الغربية وإجلال عظيم — وضريحه محجتهم التي يحجون اليها في كل عام حيث ينحرون النذور ويطعمون الفقراء على حبه وتيمناً به ، واذا أقسم إنسان من أهل الصحراء وكان رائده في قسمه الصدق . فبسيدي عبد الرحمن قسمه . ولقد بنى ضريحه وجامعه الخديو عباس حلمي الثاني . !!

٣ — الحياة في مريوط

١ — الطقس

الحرارة : أقصى درجة حرارة سجلت كانت ٤٣ر٠° وذلك في يوم ٨ يوليو سنة ١٩٣٣ مع أن المعدل في هذا الشهر كان ٣٧°

أما أقل درجة للحرارة سجلت فكانت ٢ر٠° وذلك في يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٣٣ مع أن المعدل كان ٨ر٨°

الرطوبة : المتوسط اليومي يبلغ أقصاه في شهري يوليو وأغسطس حيث يبلغ ٨٠ ٪ أما حدها الأدنى في شهر ابريل حيث يبلغ ٧١ ٪

المطر : بلغ أقصاه في اليوم الواحد ٩٨ر٨ ملليمتراً وذلك في يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٠

التبخر : يصل أقصاه في شهر سبتمبر حيث يصير ٨ر٧٦ م. م . في اليوم الواحد . وأقله في يناير حيث يبلغ ٦ر٤٦ م م في اليوم الواحد

الرياح : أغلبها شمالية وذلك في صيف ، أما في يناير وفبراير فتشتد الرياح الجنوبية الغربية . والغربية الشمالية ، والشمالية الغربية ، وأما الجنوبية في شهري مارس وابريل ، وأما الشرقية في مارس وابريل ومايو ، والغربية فأغلبها في شهري ديسمبر ويناير . والشمالية الغربية في شهر يوليو .

وتهب الرياح الجنوبية الغربية : والجنوبية من قلب الصحراء وتكون في هبوبها قريبة من الأرض فتحدث عواصف رملية تبلغ أشدها في مارس ، إبريل . وهذه العواصف الرملية سيئة الأثر ، تضر بالانسان والحيوان وتفتك بالزروع . إذ أنها في هبوبها قريبة من سطح الأرض تحمل معها ذرات الرمال التي تتطاير في الأفق ، وتتكاثف في الهواء . تحدث ظلمة شديدة ، وتحجب ضوء الشمس في بعض الأحيان .

وتبدأ العاصفة إما في أول النهار أو في أول الليل ، وتستمر نصف يوم وقد يمتد هبوبها الى أيام ، ويسمي البدو هذه العواصف الرملية « بالعجاج »

وثورة العجاج في الشتاء ، أخف وطأة منها في الصيف ، ذلك لأن عواصف الشتاء لا تطول غالباً ، وهي عند البدو تشير بسقوط المطر ، إذ لا بد لتهدئتها من أن تسقط أمطار تغسل الأفق مما يتطاير فيه من ذرات وغبار . أما في الصيف فما لتهدئتها من سبيل الا اذا سكنت العاصفة أو تغيرت اتجاهات الرياح .

زيادة على ما تقدم فان لسقوط الأمطار فائدة أخرى ، وهي جعل الذرات المتطايرة مع الرياح تكتسب قوة التماسك بعض الشيء ، فلا تثور جميعها مع أقل النسمات الهينات عند هبوبها . أما في الصيف ، فان لحرارة الشمس الدائمة الاشراق والتي لا يحجبها الغمام ، أثراً في تبخر الماء الذي بين هذه الجزيئات المتماسكة ، فيفقدها قوة تماسكها ، فتتفكك الكتل الصغيرة ، وتصير الذرات عرضة للتطاير مع أقل عاصفة ، لذلك فهذه العواصف تكون شديدة داخل الصحراء وكلما اقتربت من منطقة سقوط الأمطار خفت وطأتها الى أن تنتهي الى الشاطىء ضعيفة أو ليس لها أثر .

٢ — القبيلة

. . . ويقيم العرب في بيوت من الشعر ، على هيئة مجاميع صغيرة ، تسمى كل مجموعة منها « نجعاً » . . وجموع « النجع » . . « نجوع » . . « والنجع » وحدة « القبيلة » . . وهو إما أن يضم عائلة واحدة . . أو عدة عائلات . . ومن هذه « النجوع » المتباعدة المتناثرة في عرض الصحراء تتكون تلك المملكة الصغيرة ، التي يدير شؤونها رجل واحد ، نافذ الكلمة في الجميع ، مطاع لا يشذ عن إرادته أحد . وكل من خرج عليه نبذته النبذ . . حتى وإن كان من أخص خصائص القبيلة . !!

وإنهم ليقيمون بيوتهم من الشعر ، على سفوح التلال ، ومنحدرات المرتفعات والكروم (٣٠) ودائماً يجعلون الباب نحو مشرق الشمس . . وهم يجعلونها في سفوح المرتفعات لكي يتفادوا عبث العواصف والأمطار .

وليس لشيخ القبيلة أن يتحكم في مجموعة أفرادها أو يستبد ، فالدكتاتورية لا أثر لها بين البدو مطلقاً ، وانما الأمر شورى بينهم ، فلهم قانون عرفي يتعاملون به ، حتى أمام دور الحكومة . . على أن يكون التعامل به قاصراً على مشاكلهم التي لا تتعلق بأحد غير العرب .

وتشكل الحكمة العرفية للفصل بين أفراد قبيلة واحدة ، من الشيخ رئيساً ، وكبار العائلات أعضاء . وكل ما يحكمون به ، نافذ على المتخاصمين الذين غالباً ما يتلقون الحكم بارتياح ورضى .

أما إذا أريد تشكيل المحكمة للفصل بين قبيلتين ، فتكون من رؤساء القبائل المجاورة ، أو في دار قسم النواحي . فإن كانت الأولى . فالرئاسة لأكبر المشايخ سناً . وإن كانت الثانية فالرئاسة لمأمور القسم أو من يحل محله ويقوم مقامه . وإذا ما أصدرت هذه المحكمة العرفية حكماً ، فليس لأحد الطرفين أن يرفض قبوله ، وإلا عرض نفسه لاتحاد الجميع ضده ، واجتماعهم على مناوأته وإيذائه . وفي هذه الحالة إما أن يجبر على القبول بواسطة أحد الأعضاء أو تكون النتيجة أن يفقد حقوقه أمام هذه الهيئة التي انعقدت للتحكيم . وعندها تكون أمامه الفرصة الأخيرة وهي أن يلجأ الى المحكمة التي يرأسها المأمور . وهنا له الحق في أن يطلب المحاكمة بقانون العرب ، أو بقانون العقوبات . ونادراً لا يلجأ أحد لقانون العقوبات إلا إذا توسم في جانبه بعض التخفيف .

ويطلب المختصمون انعقاد محكمة العرب للفصل فيما بينهم باصطلاح درجوا عليه وهو أن يقولوا (نريد الميعاد) ومعناها يطلبون تحديد الموعد الذي تنعقد فيه المحكمة .

وإذا ما أراد المتحكم المحاكمة بقانون العقوبات أصبحت عضوية مشايخ العرب لا محل لها ، ويحل محلهم بعض الموظفين الموجودين ، المكلفين ، مجتمعة كرئيسة لمحكمة من المحافظة ، إذ الحكم عسكري في الصحراء وقضاته من رجال البوليس والادارة فللأمور حق الضبط . والتحقيق والحكم . والتنفيذ . وتجري هذه الاجراءات بسرعة مدهشة ، حتى أن الواحد منهم لا يستغرق في بعض الأحيان أكثر من ثلاث ساعات حتى يكون بفضل الله وبهمة رجال الحدود الأفاضل داخل السجن بين جدران أربعة . ومن أرباب السوابق . (وأخيراً أدخل في بعض جهاتها النظام القضائي المدني)

أما قانونهم فيقوم كله على أساس الغرامات وهو متمشٍ مع مذهب الامام مالك والسنة إلا في بعض نواحٍ شاذة لا تتفق لا مع السنة ولا مع مذهب أي امام ، حتى ولا تذهب بروح الهدي ، واليك بعض نواحيه :

١ — في قضايا القتل

اذا قتل أحدُ أفراد قبيلة ، أحدَ أفراد قبيلة أخرى ، فعلى القبيلة التي منها القاتل أن ترحل عن منازلها ، وتنزل على قبيلة أخرى ، طالبة منها الاستجارة تفادياً بدمه ، كاحتمال إغارة رجال القبيلة التي منها القتيل عليها في طلب الثأر . وتعمد القبيلة التي منها القاتل تاركة مائها وزرعها ، إن كان لها زرع ، وكل ما لا يستطيعون نقله ، نهباً للآخرين ، ولا يستطيع أحد أن يتخلف عن الرحيل ولو لبضعة أيام ، إلا إذا اعترضوا القتال الذي فيه تراق دماء الرجال ، ومن النادر أن يحدث هذا بين قبائل أولاد علي .

والدم غالٍ عند العرب ، لا يتهاونون فيه . ولا يتركونه يذهب هباءً ، وإنما يهدرون في سبيل الدم المسفوك دماً أغلى منه عند آله وأعظم ، فلا يأخذون القاتل بدم من قتل ان كان ليس ذا شأن في القبيلة ، بل يطلبون من هو أعز مكانة منه ، حتى وان دعا الأمر لقتل الشيخ نفسه اذا استطاعوا الوصول اليه .

وقد تطول مدة الارتحال عاماً أو عامين ، وناهيك عما في ذلك من إذلال ومهانة لا يرتضيها العرب مطلقاً ، وفي خلال هذه المدة ، تبذل المساعي بين الطرفين ، من القبيلة المجيرة والقبائل المجاورة ، حتى يتفق الطرفان على الصلح ، على أساس دفع « الدية » المقررة بين العرب ، وإذا رفض أصحاب الدم قبول الدية ، وأبوا إلا الثأر ، فمعنى ذلك أن تهب القبيلة المجيرة مع التي نزلت عليها ، وتناصرها حتى تنصرها نصراً عزيزاً ، ربما تذهب في سبيله الضحايا بغير حساب .

فالبدوي لا يعرف التخلف عن العفوف إذا ما دعي داعي الجد ، وطلب النصرة والعون فكلٌ منهم مهما صغر شأنه أو عظم ، عليه أن يحمل على عاتقه جزءاً من الفادحة على قدر طوقه

والدية عند العرب تقدر بمائة جنيه عند ما يكون القتيل رجلاً . ونصف هذا المبلغ للمرأة ، والرجل والمرأة عند العرب هو كل ذكر أو أنثى ، وإنهم ليتغالون في تقدير ذلك بعض الشيء . إذ يعتبرون « السقط » — أي الجنين الذي تلده المرأة قبل حينه — نتيجة اجهاض بسبب اعتداء أحد عليها ، فينظرون في أمره ان كانت خليقته قد تفصلت ويعتبرون الذكر كالرجل . والأنثى كالمرأة . وتدفع الدية على الأساس السابق الذكر .!

واذا ما تمَّ الصلح على أساس دفع الدية ، فعلى كل فرد من أفراد القبيلة التي منها القاتل أن يؤازر ويتعاون في جمع المبلغ ، على حسب ما يمتلكه ، وعلى قدر طاقته المالية ، فمنهم من يدفع عشرة جنيهات ، ومنهم من يدفع خمسة قروش . على أن المعتاد في دفع الدية ، أن تقسط على ثلاث سنوات ، ولا تدفع كلها نقداً بل يصح أن يدفع جزء منها أغناماً وجمالاً تقوَّم بمبلغ معين . وعند دفع القسط الأول من الدية ، فللقبيلة النازحة عن منازلها أن تعود اليها ، آمنة مطمئنة ، لا يتعرض لها أحد ، ولا تخشى شيئاً من خصومها .

وتدفع الدية أيضاً اذا ولد القاتل ولداً إذ يطلبها ، أهل القتيل ، بحجة أن المرحوم لو كان على قيد الحياة لأنجب ولداً كما أنجب القاتل أو بنتاً ان كان المولود بنتاً وهكذا .

وتدفع الدية أيضاً في حالات غير هذه ، كأن يكون أحد البدو يملك جملاً أو كلباً عقوراً ذا شهرة في شراسة الخلق ، واعتدى هذا الجمل أو ذلك الكلب على أحد ، وتسبب عن هذا الاعتداء وفاة المعتدى عليه سواء أكان في التو والساعة ، أو بعد حين . هنا يُلزم صاحب

الحل أو الكلب بدفع الدية ، أما إذا نتج عن الاعتداء بتر الساق أو الذراع أو فقد العين فتكون الدية نصفاً اذ المعتدي عليه أصبح نصف رجل أو نصف امرأة فيعوض عن النصف الآخر الذي فقده بالمال . أما اذا لم يحدث الفقد في أحد الأعضاء المزدوجة في هذه الحالة يجتمع مجلس العرب أيضاً ، ويأتي « النضّار » أي الطبيب الشرعي عند العرب ويقدر مبلغ الاصابة وما تستحقه من الدية وتكاليف العلاج ، فلكل جرح ثمن . وللاصبع ثمن وللأسنان ثمن ؛ ولذا يتحدث العربي عن نفسه كانسان قائلاً : « بني آدم كله فلوس »

وفي حالات أخرى غير السابقة تدفع الدية . كأن يفتن أحد على أحد عند البوليس ويتسبب عن هذه الفتنة أن يسجن من فُتِّين عليه ، ويسوء الطالع ويموت داخل السجن بانتهاء الأجل قضاءً وقدراً ، هنا يطلب أهل الميت السجين الدية من أهل الذي فتّن عليه وتسبب بفتنته في سجنه أو يلدونه لهم ليقتلوه بدلاً منه .

* * *

هذا في أحوال القتل العادية التي يعترف فيها القاتل أو يُشْهد عليه الشهود جريمة القتل أما اذا كان القاتل مجهولاً ، وحامت الشبهة حول أحد ، وسُئل وأنكر ، طُلب لأداء اليمين .

واليمين عند العرب ، ليس هو قسم كتاب الله الكريم . بل يقسمون على ضريح أحد المشايخ الموجودين بالصحراء ، فلأولياء الله في نفوس البدو مقام كبير ، يرهبون القسم على أضرحتهم أكثر من القسم على القرآن ، ويعتقدون أن من يقسم على ضريح ولي من هؤلاء قسماً باطلاً فلا بد من أن يُنزل به وبأسرته الفناء قبل ثلاثة أعوام ، أما هذا القسم وقسم القتل خاصة . فلا بد من أن يؤديه المشتبه في أمره وخمسة وخمسون من عائلته ، هو يقسم بأنه لم يفعل ، وهم يقسمون على صحة قسمه ، ولا يكون هذا الانكار عادةً الا إذا نكث أحد العهد بعد أخذ الدية ، فقتل ممن قتلوا منهم بعد دفعهم دية قتيلهم ، في هذه الحالة ينكرون إذ أن دية القتيل الثاني مضاعفة أي ٠٠٠ جنيه مصري أي ترد الدية الأولى ويسقط دم القتيل الأول وتدفع دية القتيل الثاني . هذا فيما يختص بالقتل ومشاكله . واذا امتنع أحد أفراد عائلة القاتل الذين يُنتخبون (من الخمسة والخمسين) عن اداء اليمين كان ذلك دليلاً على ثبوت الجريمة وتُدفع الدية .

٢ — في قضايا هتك العرض

أما في حالة ما إذا اعتدى أحد على عرض الآخر ، فانهم يتبعون في عرفهم طريقاً ودياء أرى أنهم ما ارتضوه فيما بينهم ، إلاّ محافظةً على دماء الشباب الذين يغرو بهم الشيطان ويدفعهم دافع لايُرد نحو ارتكاب جريمة الزّنا وهتك العرض ، فانهم ليمتزّون بدم الرجل امتزازاً غريباً ، ولا يهدرونه بأي ثمن ، وإنهم ليقدرون جميعاً أن الشيطان يظلّ للمرأة ولا ينشط العمل على الفساد الاّ اذا وجدها مع رجل في خلوة ، لذلك قدّروا وقوع الخطيئة ، في ذلك المحيط الواسع المترامي الأطراف ، فان جعلوا دم الرجل الزاني ثمناً للعرض الذي انتهكه ، نتج عن ذلك طلب الثأر من القتلة ، وهكذا يخرجون من مصيبة ليقعوا في غيرها أشد منها وأدهى ، وتكون النتيجة فناء الرجال من جراء خطايا النساء بتكرار طلب الثأر والأخذ بالدم ، وهل يموت رجلان أو عدة رجال من أجل امرأة ؟

إن المرأة ليست من الأهمية بحيث يريقون من جراء خطيئتها الدماء .. !!

أما هذا الطريق الذي تعارفوا عليه فيتلخص في الآتي :

أولاً : فيما يتعلق بمعاملة الرجل لابنته إذا ما زنت . فإنْ قتلها ، وهذا نادر بين أولاد علي ، فليس لأحد أن يحاسبه على قتلها ، أما الزوجة فليس لزوجها أن يقتلها من جراء الخطيئة مطلقاً ، وان فعل كان عليه أن يدفع ديتها لأهلها ، فإنهم ليقرون جميعاً أن المرأة ملكٌ لأهلها . أي أن أباها صاحب « العظم » فيها فهي له أولاً وأخيراً ، ويتطرفون في هذه الناحية ، فيجعلون كسب المرأة لزوجها ، أما إذا وجدت شيئاً (لقيته) فهذا لأبيها ، لأن « اللقيّة » هبة من الله ، وكل ما يهبها الله من خير فهو للوالدين .

ثانياً : فيما يتعلق بالرجل الزاني . فقد وضعوا لذلك حدّاً لا يتخطاه إنسان وهو :

١ — اذا كانت جريمة الزنا مع امرأة « ثيب » أي لا زوج لها ، وكان مكان ارتكاب الجريمة العلاة ، أي بعيداً عن دارها ، وكان وقوع الأمر برضاها فهذه لا حساب لها ولا ثمن .. !!

٢ — أما اذا كانت جريمة الزنا مع امرأة ثيب ، وفي دار أبيها أو أخيها . فعلى الفاعل ان يدفع مبلغ عشرة جنيهات ، كثمن لحرمة البيت الذي انتهك حرمته ، ويسمون هذه العقوبة المالية « مصتسب »

٣ — اذا ارتكب رجل الجريمة السابقة اغتصاباً ، أي برغم المرأة التي زنى بها ، فعليه أن يدفع عشرين جنيهاً لأبيها أو أخيها ، ويسمون هذه العقوبة المضاعفة « كبارة » وهي عقوبتان في آن واحد. أي عشرة جنيهات لحرمة الدار التي ارتكبت فيها الجريمة .. وعشرة جنيهات كحق للرجل الذي هتك عرضه .. !!

٤ — اذا ارتكب رجل جريمة الزنا مع عذراء في الخلاء برضائها كانت عقوبة الرجل لا شيء .

٥ — أما اذا ارتكب الجريمة السابقة رغم العذراء كانت عقوبته « كبارة » وذلك للاعتداء على عرض العذراء . وكذلك الأمر فيما لو كان الحادث في دار أبيها .

٦ — اذا ارتكب رجل فاحشة مع امرأة متزوجة ، في الفلاة وبرضائها ، فلا جناح عليه . أما اذا وقع الحادث في دار الزوج وبرضائها أيضاً ، فعليه أن يدفع الزوج عشرين جنيهاً « كبارة » مضافاً اليها المهر الذي دفعه الزوج فيها ، وكذلك النفقات التي أنفقها في سبيلها قبل الزواج . على شرط أن يطلق الزوج زوجه في الحال . وان أبى طلاقها فلا حق له في شيء . لا مهر ولا نفقات ولا كبارة . ومن العربان من يطلقها ايثاراً منه لكنها ثم يردها الى عصمته ثانية . وهذا لا يقام لحادثه وزن بعد ذلك إذ تسقط حقوقه فيما بعد لو وقع له حادث كهذا .. !!

٧ — أما اذا نال رجل امرأة متزوجة في دارها اغتصاباً فعليه أن يدفع الكبارة فقط .. !!

وتتضامن القبيلة جميعها في دفع هذه الغرامات أيضاً ، كل على حسب ما يستحق كما سبق أن ذكرنا . وإنه لمن العار عند العرب أن تتخلى القبيلة عن أحد أبنائها في مثل هذه الظروف . والطريف في الأمر ان الفاعل يدفع ما يستحقه كأحد الآخرين . على أنهم جعلوا لهذه المؤازرة حداً هو في نصاب العدل تماماً . فقد جعلوا واجب المؤازرة حقاً لكل فرد في الجريمة الأولى أو الثانية بالنسبة اليه ، أما اذا كثرت جرائمه وتعددت أحداثه وتتالت أخطاؤه ، فان القبيلة تعلن بين القبائل ، انها قد تبرأت من فلان هذا ولا شأن لها به . واذا ما أعلنوا « البراوة » — كما يسمونها — بين العرب أصبحوا وهم لا يطالبون بشيء ازاء ما يرتكب هو من أخطاء . وذلك على شريطة ألا يؤازره أحد أفراد القبيلة سراً ويمد له يد العون في الخفاء فاذا ثبتت معاونتهم له في السر وفي العلن التضامن ألزموا بكل ما يقع على عاتقه من غرامات ، إذ « البراوة » في هذه الحال تعد باطلة .. ! !

ومع كل ما تقدم فان المغتصب لا يدفع كله ، ولا الكبارة كلها ، فقد جرى العرف عند العرب ان يتقدم بعض ذوي الشأن فيهم ، لأصحاب الحق ، أو لصاحب الحق ، طالبين ترك

جزء من المبلغ المقرر دفعه « لأجل الخواطر » فمثلاً يتقدم شيخ مهيب اصحاب الحق ممسكاً في يده عشرات ذقنه قائلاً « علشان هذول شيب كام » فلا يسع صاحب الحق إلاّ أن يترك مبلغاً لأجل ذقن هذا الشيخ فينطق قائلاً : «صبت جنيهين» ! وهكذا إلى أن ينتهي الأمر على أن يدفع الجاني جنيهاً أو أقل .. ثمناً للعرض الذي انتهك .

على أن هذه المبالغ التي تُركت إكراماً ولأجل الخواطر » لا تضيع هباء ، وإنما هي دين على من تُركت إكراماً لهم ، وهذا الدين لا يدفعونه نقداً وعداً .. بل يتركونه إكراماً لهذا الذي تركه اكراماً لهم في مثل هذه الظروف ومن الغريب أن هذا الدين يطالب به الأبناء والأحفاد .. !!

٣ — الزواج

من العوائد الموروثة عند أولاد علي ، ان الفتاة لابن عمها ، ان كان لها أبناء عم .. وما دام بنو عمها لا يزال فيهم من لم يتزوج بعد ، ولم يرفضها أو يصرح لها بالزواج من غيره ، فليس لها الى الزواج من سبيل ، حتى وان تقدم لها ألف خاطب وخاطب .

ولم يجمع « أولاد علي » على هذا العرف إلاّ ليضعوا حدّاً لما عساه أن يجد ويحدث من منازعات بين العائلات اذا ما تزوجت الفتيات بغرباء عنهن ، وحدوث اهانة من الزوج لزوجه . فلا بدّ لذويها من أن ينصروها على زوجها ، وبذا تبدأ المنازعات والمشاكل من جراء النساء . ولكن وهي عند ابن عمها ، فليس لها ان تطلب من أحد أن ينصرها عليه ، وليس في ظلمه إياها وجوره عليها أي عار على ذويها . لأنها هي منه وهو منها .

ولذلك فإن الفتاة غالباً ما تنشأ عزوفاً عن ابن عمها غير راغبة فيه ، متنافرة وإياه . لأنها تعلم حق العلم أنه هو نصيبها من الدنيا ، حتى وان كان مضوّها زوجيًا . وكثيراً ما يميل بها الهوى نحو غيره ، وتكون النتيجة ان يعاقبها ابن عمها على هذا الصدود وهذا العزوف ، بأن يضيع عليها الفرصة في كل زيجة تأتيها من الخارج ، وتظل بكراً الى أن يشيب قرناها .

واذا حدث وعُقِد العقد على غريب — وهذا نادر — فلابن العم أن يفسخ هذا العقد ، وليس لأحد أن يعترض عليه فيما يفعل . ولا يمكن للوالد أن يحمي فتاته من أبناء عمها اذا طلبوها ما دامت عذراء . فبكارتها لابن عمها ، لا جدال في ذلك . فان شذّ أحد عن العرف قوطع من أهله ، وبدأت العداوات والأحقاد .. وربما سالت فيها الدماء .

على أنهم جعلوا للفتاة فرصة بعد ذلك لاسترداد حريتها السليبة وحقها المضيع . وذلك بعد أن تتزوج بأسبوع ، عندما تعود الى دار أبيها لكي تقدم لأمها . « دوار الجزء » أي

حتى الآن . هنا لها الحق ان تعود الى زوجها إن كانت تحبه أو وجدت من نفسها ميلاً اليه . أو لا تعود اذا كانت لا تزال نافرة منه . . !!

واذا لم تعد . قاطع الزوج أهلها . وبقي صامتاً لا يتكلم ، الى أن يظهر في أفق حياة الزوجة النافرة ، العريس المرقوب . فإما ان يطلقها بعد ما يأخذ منه كل ما خسرد فيها . . يضاف اليه الكبارة . وإما ان يحتفظ بها على البعد فلا يفسح لها السبيل لكي تصل الى ما تريد . ويكون ذلك بدء العداوة بينه هو وعائلته وبين العريس الجديد وأهله .

واذا ما قبل الزوج ان يسرّح امرأته ، كان على العريس الجديد ان يقدم له المهر والنفقات التي خسرها في سبيلها ، وكذلك « كبارة » لانه أفسدها عليه . ويأخذ منه مخالصة بكل هذه الحقوق . ثم يعطي لابيها مهراً جديداً ، ويقوم بنفقات جديدة لا مندوحة عنها ، وغالباً مثل هذه الزيجات لا تفلح ، ولا يطول بها المدى ، ولا يربح صاحبها من ورائها إلاّ إيجاد عداوات جديدة ، بينه وبين قوم ما كان ليناصبهم العداء .

أما مقدمات الزواج فيسيرة جداً ، وذلك بأن يذهب العريس أو أحد أفراد بيته لوالد العروس فيقول له : « نريد نخالط فيكم » فان كان موافقاً رحب بهم . وبعد ذلك يرسل العريس عدداً من الخراف أو النعاج ، ومقادير من الارز والعدس والحلي ، تولم بها وليمة في موعد يحدده هو ، فيذهب هو ونفر من ذويه وصحبه فيأكلون ، ثم يقرؤون الفاتحة . وبعد ذلك تنطلق الاذاعات بين الجيران من العرب « بأن فلاناً ذبح في فلانة » أي خطبها ، وفلانة مذبوح فيها ، يعني مخطوبة . وإذا ذُبح فيها فليس لها أن تعمل بالاجر إن كانت ممن يشتغلن بالأجر .

وبعد يوم أو يومين يجتمع هو أو أبوه بأبيها لكي يتفقا على المهر ، وعادةً يتفقون عليه مقدماً ومؤخراً مناصفة ، فمثلاً نفرض أن الاتفاق تمّ على أن يكون المهر كله ستين جنيهاً . فيدفع مقدماً ثلاثين جنيهاً ويؤجل لمؤخر ثلاثين جنيهاً .

أما المتقدم ، فيُدفع إما نقداً وعداً ، وإما أن تقوّم به أغنام وبعض مواد المعيشة ، وبعض المصاغ الفضي الذي تعوّد أن يتحلى به نساء العرب ، وتنحصر في « دملج » أي سوار من الفضة عريض جداً « وشناف » وهو قرد من قرط تُلبس في إحدى ناحيتي الأنف .

وكل هذه الأشياء المدفوعة ما عدا الحلي يأخذها الوالد ، فلا ينفق منها على فتاته شيئاً مطلقاً ، إذ يعتبرها من حقه كثمن لتربيته فيها . ثم على العريس بعد ذلك أن يكسوا عروسه ثم يذهب فيعد له خيمة بجوار خيمة أبيه ويفرشها حسب ما يقتضيه مقامه بين العرب . وإذا ما أعد البيت جاء فأخذ العروس وسط حفل يقام فيه الزمر والعزف والغناء . وعادةً يكون

ذلك بعد الظهر بقليل ولا يدخل العريس بعروسه وإنما ينيب عنه أحد أقربائه وتجري العملية بوحشية وقسوة فظيعتين إذ يمسكها رجلان ويفعلها رجل والخيمة مفتوحة على مصراعيها أمام الناس ، وهذه عادة موروثة من قبل الميلاد إذ كان ملك الصحراء الغربية — على ما جاء في بعض الروايات — له الليلة الأولى عند كل عروس قبل أن تزف الى زوجها

وبعد أسبوع تعود العروس لدار أبيها حاملة معها ما تستطيع حمله حسب مقدرة الزوج المالية فتقدم لأمها « صوار اللبن » أي حق اللبن الذي أرضعتها إياه وفي هذا الوقت لها الحق في أن تعود أو لا تعود

وأما المؤخر : فالى أحد أجلين ، وهذان الأجلان كما يعبّر العرب ، إما على « عيب أو صوب » . والعيب : إذا ضربها أو طردها ، أو انتهك حرمتها فأجبرها على ما لم ترغبه مما يتعارض مع الشرف . والصوب : إذا صوّب عليها غيرها ، أي إذا تزوج عليها ، في هذه الحالة لا تطلق وإنما يجهز لها بيتاً ويقطعها بعض الغنم ، إن كان صاحب غنم ، ويتركها مستقلة ، وكل ما يفعله من أجلها في هذه الحالة من مؤخر صداقها .

ولقد اتخذ بعض البدو طريقة الزواج هذه كوسيلة للكسب من وراء بناتهم إذ يزوج الأب فتاته من رجل ، وعندما تأتي في « السبوع » لا تذهب اليه ، وتبدأ بالمناورة مع رجل آخر . وهكذا ، ما دام كل مبلغ يصل الى يد الأب ، لا ينفق منه شيئاً في سبيلها . ويقولون معبرين عن هذه الحالة « فلان بيتفتف من حول بنته » أي يتكسب من ورائها .

ooo

ولا يحررون العقود عند الزواج ، وإنما يعقدون العقد عرفيّاً فيما بينهم ، حتى إذا ما جاء يوم السوق ، ذهبوا الى حيث يلقون المأذون ، الذي يقوم بتحرير عقود الزيجات التي تمت جملةً واحدة ، ومنهم من لا يحرر عقداً مطلقاً .

٤ — اللغة والدين والصناعة

١ — اللغة : لغة البدو المقيمين بالصحراء الغربية أقرب الى الفصحى منها الى غيرها ولكن لهجتهم الخاصة تجعل ألفاظهم غريبة على السمع بعض الشيء ، ولهم غرام خاص بالغن في أواخر الكلمات ، وقلما يفهم الحضري عن البدوي لفظه كله أو كلامه كله لأول أو لثاني مرة ، ولم أجد أشد تبلداً من ذهن البدوي في فهم كلام الحضري إذ لا بدّ من أن تعيد على مسمعه القول مرة أو مرتين .

وللبدو اصطلاحات شتى في لغتهم نذكر منها :

ازمُطها : ابلعها	زَمّطها : ابتلعها
كَتاك : مالك	هُك : هناك أو هكذا
أنا بيدي : أنا شخصيًا	فيسا : بسرعة وهي اختصار لجملة : في ساعة)
فلوس : الصراف	بنه : عطر أو رائحة
ربعية : مرة	عويل : طفل أو أطفال

الى غير ذلك من الألفاظ التي ينبو عن الذوق ذكرها وعلاوة على ما تقدم هم مغرمون بالأمثال يضربونها للمناسبات وميلهم الى التصغير في الأسماء والاختصار فيها لا حدّ له مثال ذلك ينادون عبد الرحيم : رحومة .وعبد النبي : نبيوة . وعبد الكريم : كرومة ُ وكريم وعجل : عجيل . وسالم: صلومة

٢ — الدين : والدين بين البدو الاسلام . ولكنهم يكادون ألاّ يعرفوا عنه شيئاً . وكل ما يعلق بأذهانهم منه أن هذا حرام . وذاك حلال . أما الحرام فهو كل ما لا يتفق مع ميولهم . وأما الحلال فهو كل ما وافق هوى النفوس منهم والأفئدة

وقليلون منهم من يؤدون فريضة الصلاة . والبدوي لا يتوضأ مطلقاً وإذا يتيمم حتى وان كثر الماء من حوله ، فانهم ليضنون بالماء أن يذهب سدًى في غير الشرب والطهي .لذلك لا يستحم الرجال إلاّ نادراً لأن الاستحمام في عرفهم مذيب للجلد ويفقده خاصية المقاومة والاحتمال لتقلبات الطقس . والرجل الذي يستحم يصير مضرب الأمثال إذ أنهم يجردون من الأوساخ التي تعتلي الجلد وتتراكم عليه صلاحاً يقيهم قارس البرد في الشتاء

والنساء قلما يعتنين بنظافة غير وجوههن ، وقد تلد المرأة خمساً دون أن تستحمّ لذا فاق لهن رائحة قذرة . والمرأة التي تعتني بنظافة نفسها هي العذراء التي تطلب الزواج . أو المزبة التي تبحث عن الزوج . وهذه وتلك اذا ما تزوجت أهملت النظافة وصارت كبقية النساء .

وتضع النساء رائحة خاصّة هي مزيج من القرنفل وبعض الأعشاب البرية ذات العطور ويسمون هذه الرائحة (بنه) وهي لا تحلو إلاّ لأبن العشيرة . أما الحضري فإنه يشمئز منها ويأنف رائحتها . . . !

والمرأة لا تلبس السروال إلاّ نادراً ، والغالبية منهن يستعضن عنه بحزام عريض جدًّا من الصوف وغالباً ما يكون أحمر اللون . وهو عندهن بمثابة الجيب الذي تضع الريفيات فيه حوائجهن وحقيبة اليد عند المتحضرات ، ولا بد من أن تتوشح الفتيات بالجلابيب الزاهية اللون إذ يتخذن منها غطاء للرأس ، والجلباب الجديد هو الأوفق لديهن لذلك وإذا قدم بعض الشيء لبسنه وتوشحن بما هو أجد وأزهى .

وللنساء غرام خاص بالألوان الزاهية كالأصفر (الكنارية) والوردي (البنبة) والأسود للعصائر والوشم الأخضر في الشفاه واليدين يعتبر زينة تتحلى بها المرأة. ولذا قلما يخلو وجه واحدة منهن منه.

ومصاغهن (الشناف) وهو فردة من قرط تلبس في إحدى ناحيتي الأنف، والدملج، وهو سوار من فضة أو قصدير عريض للغاية.

والفضول، والسكاعة، والكبرياء الكاذب من أهم صفات هؤلاء البدو. فلقد نشأ البدو والفضول طبيعة في دمائهم شغوفين باستطلاع الأخبار التي تسري بينهم كسريان النار في الهشيم فلا يمضي طويل وقت حتى يعلم القاصي والداني بما يقع في أي مكان سواء أكان أمراً مهماً أو غير مهم، والنفاق والخيانة طباع غريزية فيهم منذ القدم.

والبدوي درج على «السكاعة» والكبرياء الكاذب وليس أدل على ذلك من تلك الحادثة المشهورة التي وقعت بين سمو الخديو عباس حلمي الثاني، وأحد أعراب مربوط، إذ ذهب الخديو ذات يوم ليمر بزراعاته هناك فرأى بدوياً يرعى غنمه. فسأله الخديو: (إيش بدير يا شيخ العرب؟) ماذا تعمل يا شيخ العرب.

فأجاب البدوي وهو متكىء برمحه على الأرض: (بارعى الدبش) أرعى الغنم.

فسأله الخديو: في أرض من ترعى الدبش؟

فأجاب: في أرض عبّاس.

فسأله ألا تعرف عباساً هذا؟

فأجاب: لا والله ما ريته؟

فقال الخديو: أنا عباس.

فأجاب بكل بساطة وهو لا يزال متكئاً كما هو: أنت صبوحة؟ ازيك يا صبوحة.

وظل كما كان ضارباً (كوعه) في الأرض ينظر لمن أمامه كما لو كان ينظر لبدوي مثله.

والرجل المتزوج لا عمل له غير (ترقيم) الخيمة وحياكة الملابس للأسرة وما بقي فيلقى به على عاتق المرأة. فهي ترعى الغنم وهي التي تحتطب وتجيء بالماء وتهيء الطعام.. وتصنع الخبز كل يوم وتحلب الشاة وتغزل الصوف الى غير ذلك مما تتطلبه الحياة المنزلية البسيطة

ويصحب البدوي ولده معه في تنقلاته بين المجالس لكي يعلمه الجرأة ومقابلة الرجال، لذا تجد الولد يتحدث اليك في جرأة وبساطة ربما لا تتوفر فيمن هو أكبر منه من أبناء الحضر

اما صناعتهم. فالزراعة في الشتاء، ورعي الأغنام، وصيد السمان وسنتحدث عن كل ناحية على حدة.

سيمات العرب

شُنُوز = علامة قُونِس = علامة سِمَة = علامة

النّاجرة . الشّاوي . العمّاري

عائلة ابجيم . الزوّارة . الحسون

العواقير . القطعان . القبيسات

ولكل قبيلة من البدو سمة يسمون بها ماشيتهم وآبارهم حتى يمكن تمييزها من غيرها اذا اختلطت أو اختُلِفَ فيها والتعرف عليها اذا سُرقت وهم ينطقون « سيمة » بدلاً من « سمه » . ويقولون « سيمات » بدلاً من « سمات » .. !!